# صورة الفلسطيني في الرواية العبرية الحديثة بين "أرض قديمة جديدة" و"خربة خزعة"

نداء أحمد مشعل *

تاريخ الاستلام 2021/11/30 DOI:https://doi.org /10.47017/32.1.5 تاريخ القبول 2022/02/15

**الملخص**

هذه قراءة وصفية تحليلية مقارنة تعتمد منهج ما بعد الكولونياليّة بين روايتين أساسيتين في الأدب العبريّ؛ الأولى هي "أرض قديمة جديدة"، التي نشرت عام 1902م، وتُصنّف رواية سياسيّة تدخل في باب الدّعوة الآيديولوجيّة الصّهيونيّة التي استخدمت الأدب الروائيّ وسيلة أو أداة وظيفيّة لتسويغ الاستيطان الذي سيعود بالنفع على السّكان المحليين الذين سيرحبون بقدوم المهاجرين الجدد، بمنهج رغائبيّ يصوّر العربيّ متعاونًا ومسالمًا؛ أي كما يحبّ ويتمنى الأدب والفكر الصهيونيّ.

والثانية رواية "سميلانسكي" "خربة خزعة"، التي نشرت عام 1949م وتدخل في باب أدب الاعتراف والشّهادات وتطهير الذّات، وتتحدّث عن عمليات الطّرد والإذلال الممنهج الذي مارسته العصابات الصّهيونيّة المسلّحة، وشارك فيها الكاتب الذي لم يتحمّل التبكيت وتأنيب الضّمير، فما كان منه إلا الاعتراف بالكتابة، فكانت الرّواية وصفًا لشاهد عيان لشخصيّة العربيّ، بوصفها ضحيّة مستسلمة لمصيرها، أمّا شخصيّة الفلسطينيّ القوميّ المقاوم والواعي فظلّت غائبة عن الرّوايتين وعن السّرديات العبرية، وهي صورة كافية لهدم الأسس غير الموضوعيّة للسّرديّة الصّهيونيّة.

**الكلمات المفتاحية:** الحضور والغياب، الآخر، الوعي الممكن، الوعي الزّائف، الرّواية العبريّة.

## المقدمة

أدّت صورة الآخَر في السّرد الروائيّ دورًا أساسيًّا ومحوريًّا في بناء العمل وإعطائه قيمةً حقيقيةً على مستوى الخطاب الروائيّ، وأعطت مجالًا للبحث في ذواتنا؛ فالآخَر هو نقيضنا، ووجوده يتيح المجال لصوت الأنا حتى يَخرج ويُعبّر عن نفسه، ويعطي حكمًا إمّا بقبول هذا الآخَر أو رفضه. لكن الوضع يصبح أكثر تعقيدًا حين تكون الفروقات بين الذات والآخَر فروقات كبيرة عقديّة وسياسيّة واجتماعيّة ...، ويزيد الأمر تعقيدًا حين يكون الآخَر نقيضًا لذواتنا من ناحية، وسببًا في إظهار حقيقتنا المختلفة، ممثلًا لمن سرقنا أرضه وهويته وتاريخه. وعلى الرغم من وفرة الدراسات النقدية عن صورة الفلسطيني أو العربي في الأدب العبري، أو صورة اليهودي والعبريّ في الأدب الفلسطينيّ، فإنّ تلك الدّراسات لم تتطرّق إلى صورة العربيّ بتحوّلاته في عمل تأسيسي في الأدب العبريّ والسّرديات الصّهيونيّة كما هو الحال في رواية "هرتزل".

## أسئلة الدراسة

تأتي هذه الدّراسة لتلقي الضّوء على (صورة الفلسطينيّ في الرّواية العبريّة الحديثة، بين "أرض قديمة جديدة" و"خربة خزعة"، وتحاول أن ترى كيفيّة تصوير الفلسطينيّ فيها، بهدف الإجابة عن الأسئلة التّالية:

- ما شروط تشكيل صورة الفلسطينيّ وعواملها في الرّواية العبريّة؟
- هل اختلفت رؤية الإسرائيليّ للفلسطينيّ باختلاف المنطلق الذي انطلقت منه الرّواية؟
- هل يمكن اعتبار اختلاف الرؤية – بفرض أنّه موجود- اختلافًا في المواقف الإسرائيليّة من الفلسطينيين؟
- إلى أي حدّ كانت الرّؤية الإسرائيليّة مطابقة للواقع أو مخالفة له؟

© جميع الحقوق محفوظة لمجلة أبحاث اليرموك، "سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية"، جامعة اليرموك، 2023.

* كلية الاداب، قسم اللغة العربية، جامعة فيلادلفيا، الأردن.

**أهمية الدراسة**

تَكمن أهميّة الدراسة في تناولها لروايتين شكّلتا نقطة استدلال في التّأريخ لمراحل الأدب العبريّ الحديث؛ الأولى: "أرض قديمة جديدة" لثيودور هرتزل مؤسّس الحركة الصّهيونيّة، وجاءت في مرحلة انتقاليّة في المشروع الصّهيونيّ (مرحلة التّأسيس)، وفيها تمّ التّرويج لطوباويّة المشروع الاستيطانيّ لقبول العرب له وتصالحهم معه!، بعكس الرّواية الثّانية "خربة خزعة" ليزهار سميلانسكي[1] أحد المؤسّسين لمرحلة جديدة في الأدب العبريّ الحديث، وهي مرحلة ما يسمّى (أدب ما بعد الاستقلال) التي كشفت أبعاد هذا المشروع بعد التّطبيق والتّحقّق وما ألحقه من تشريد ودمار للعربيّ.

**الدراسات السابقة**

تناولت مجموعة من الدّراسات صورة الفلسطينيّ في الأدب العبريّ المعاصر في الجانبين العربيّ والإسرائيليّ، منها:

- دراسة غانم مزعل "الشخصيّة العربية في الأدب العبريّ الحديث" الصّادرة عن منشورات الأسوار، فلسطين عام 1985 في طبعتها الأولى، وتناول فيها عدداً من الأعمال الروائيّة العبريّة حاول من خلالها التّأكيد على أنّ الأدب العبريّ أنشئ لتكريس الصّورة النمطيّة السلبيّة للعربيّ في مقابل إظهار اليهوديّ بصورة المتحضّر القادم لانتشال البلاد من حالة البؤس والدّمار.
- دراسة "أنطوان شلحت" "شخصيّة العربيّ في الأدب العبريّ"، وصدرت عام 1986 درس فيها مجموعة من الأعمال المكتوبة بالعبريّة في القصّة والرواية محاولًا إظهار الاتّجاهات التي تميّز الصّراع العربيّ-الإسرائيليّ، ومحاولة تشويه صورة العربيّ في الأدب العبريّ.
- دراسة "ريزا دومب" "صورة العربيّ في الأدب اليهوديّ، 1911-1948"، الصادرة في طبعتها العربيّة عام 2014، ترجمة: عارف عطاري؛ قدّمت دراسة لرؤية مجموعة من الكُتّاب العبريين، محاولة توضيح أثر انتمائهم العقديّ وموطنهم الأصليّ في تصويرهم لصورة العربيّ.
- دراسة يوسف يوسف "الأدب الصّهيوني والاستشراق (التّضليل والصّور الاختزاليّة)" الصّادرة عن دار خطوط للنّشر والتوزيع عام 2021، وتناول فيها بالدّراسة رواية "خربة خزعة" بانيًا دراسته على إنجاز لإدوارد سعيد في الاستشراق والصّور النمطيّة التي رسمها الرّحالة والمستشرقون للآخَر العربيّ، المسلم، الشرقيّ.

أمّا ما يميز هذه الدّراسة موضوع البحث فهو أنّها دراسة تحليليّة مقارنة لروايتين في مرحلتين مهمّتين في تاريخ الأدب العبريّ الحديث بينما قامت الدراسات السابقة بتقديم مسح بانوراميّ للأدب العبريّ دون الغوص في التّفاصيل من وجهة نظر مقارنة.

**منهج الدّراسة**

اعتمدت الدراسة المنهج التّحليليّ الوصفي المقارن من منطلق دراسات ما بعد الكولونياليّة.

**تمهيد**

يتّصف الأدب الروائيّ بحريّة مطلقة قائمة على التخييل والخيال، ومع إضافة الخبرة والملاحظة يستطيع الكاتب أن يرسم الصورة التي يريدها وتتوافق مع أهدافه وميوله المختلفة؛ كما أنّه يُعدّ واحداً من الأساليب والأدوات التي يعبّر من خلالها عن الواقع والأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والإنسانيّة، وإعادة تشكيلها وتشكيل واقعها، وما من شكّ في وجود علاقة بين الأدب والسّياسة؛ لأنّ كلّ ما يدور من أوضاع وتغيرات في الحالة السياسيّة يتبعه غالبًا تعبير عنها بصورة أدبيّة؛ لذا نجد أنّ الأدب تمكّن عبر العصور من أن يعكس ضمير الأمّة وأهدافها الوطنية العليا وهمومها وآلامها، وهو المجسّد لأزماتها وتطلّعاتها، المعبّر عن آمالها وطموحاتها ليصبح في بعض الأحيان أداة من الأدوات التي تحدث تغييراً سياسيًّا واجتماعيًّا؛ إضافة إلى دوره الواضح في تشكيل الوعي لدى الطّبقات الاجتماعيّة المختلفة كما هو الحال في روايات تولستوي وديستوفسكي وتشيخوف وغيرهم من الأدباء؛ ليتحوّل الأدب في أحيان كثيرة إلى أدب ملهم قادر على تقديم إجابات لأسئلة عديدة تتعلّق بالقدرة على التعبير؛ ممّا يجعله قادراً على القيام بدور أساسيّ في تشكيل الوعي الجمعيّ لمناهضة الظلم، والسّعي إلى تحقيق قيم العدالة والحريّة.

فالأدب بوصفه محاولة إبداعية حرّة يستطيع أن يبني الأبطال والمواقف في لحظة معيّنة بعيداً عن البدهيات التي قد تصبح يومًا حقيقة سياسيّة أو اجتماعيّة في نسيج بلد ما أو منطقة ما. كما أنّه من المنطقي أن ما من كاتب يعمل من فراغ؛ فكلّ أديب - وبالتّالي كلّ أدب - لا بدّ له من أن ينطلق من نقطة ما ومن وعي ما؛ لذا يمكن لهذا الكاتب أو ذاك أن يخلق وعيًا زائفًا وفي الوقت ذاته يمكن أن يتحوّل الوعي إلى قوّة محرّرة.

ومن هذه النّقطة بالذّات من إمكانية خلق الأدب لوعي زائف أو قدرته على أن يكون قوّة محرّرة تنطلق هذه القراءة لصورة العربيّ في روايتي "أرض قديمة جديدة" و"خربة خزعة" من منطلقات ما بعد الكولونياليّة بوصف المشروع الصهيوني مشروعًا استيطانيًا كولونياليًا بامتياز؛ وبوصف الرّوايتين جزأين لرواية واحدة هي رواية الصهيونيّة، في تحوّلاتها من مشروع ومخطط إلى كيان قائم على أنقاض الآخرين.

## "أرض قديمة جديدة" والوعي الزّائف

### التّعريف برواية "أرض قديمة جديدة"

"أرض قديمة جديدة" ترجمة مئير حدّاد عام 1968م، رواية فانتازية نشرها "ثيودور هرتزل" عام 1902م وهو مؤسّس الصّهيونيّة السياسيّة، ونشرت بعد ست سنوات من كتيبه السياسي "الدولة اليهودية"[(2)]، تحكي قصّة الدكتور "فريدريك ليفنبرج" وهو شاب يهودي من فيينا سئم من الانحطاط الأوروبي، وانضمّ بعد فشله في قصّة حبّه إلى أرستقراطيّ بروسي يدعى "كينغز كورت"، وفي أثناء تقاعدهما في جزيرة نائية توقفا في مدينة يافا في طريقهما إلى المحيط الهادئ؛ فوجدا فلسطين أرضًا متخلّفة ومعدمة وقليلة السّكان كما روّجت وتروّج الحركة الصهيونيّة؛ لتسويغ الاحتلال والاستيطان، وبعد أن قضيا السنوات العشرين التّالية على الجزيرة معزولين عن الحضارة قرّرا العودة إلى أوروبا؛ فتوقفا في فلسطين مرّة ثانية، واندهشا لاكتشاف أرض تحوّلت بشكل جذريّ، فاليهود اكتشفوا أرضهم وأعادوا توطينهم واستعادوا مصيرهم كما يرى؛ فأصبح هذا البلد مزدهرًا، ويظهر هذا من خلال الجولة التي أخذهم فيها "دافيد لوتفيناك" في أرجاء فلسطين، وفي كلّ موقع نرى ما قامت به الحركة الصّهيونيّة من تحوّلات جذريّة، وما قدّمته من مفاهيم جديدة لتعايش الدّولة خاصّة مبدأ التبادليّة الذي نادى به، وكان له الأثر الكبير في ذلك، إضافة إلى أنّه أعطى للمرأة حقوقها ودورها في بناء المجتمع جنبًا إلى جنب مع الرجل. لقد قدّم صورة آيديولوجية مثالية لمجتمع نموذجيّ يتبنّى نموذجًا اجتماعيًا ليبراليًا يضمن التساوي للجميع.

تشكّل هذه الرواية مرحلة من مراحل تطوّر الحركة الصّهيونيّة؛ فقد بدأت في التّرويج للمشروع الصّهيونيّ في الوسط العربيّ ومهادنته لانها لم تكن تمتلك في ذلك موارد القوّة اللازمة لفرض المشروع، ومواجهة المعارضة العربيّة المتوقّعة؛ فعكست منهجًا رغائبيًا عند "هرتزل" بتوقّع ترحيب العرب بالاستيطان الصّهيونيّ، وكأنّ القضيّة قضيّة اقتصاديّة لا غير.

### صورة الفلسطينيّ في رواية "أرض قديمة جديدة"

تكتسب رواية "أرض قديمة جديدة" أهميتها من أمرين أساسيين: الأول؛ أنّها رواية طوباويّة تلامس الواقع لحلم الدولة الصّهيونيّة الذي أصبح قيد الإعداد والإنشاء بعد قرار موتمر بال عام 1897م[(3)]، ويدعم من خلالها الأفكار التي قدّمها في كتابه "الدولة اليهودية"، ويوثّق لفكره ويحاول تجسيده ما أمكن، ويجمّل الصورة ويعطيها المسوّغات القانونيّة والإنسانيّة. والأمر الثاني أنّها رواية قابلة للتأويل؛ يمكن أن تُقرأ من غير زاوية: تاريخيّة وسياسيّة واجتماعيّة وفكريّة ...، ولعلّ قيمتها الحقيقيّة تظهر من اختياره للعنوان؛ فأرض قديمة جديدة الموجود على غلاف الرواية وترجم إلى العبرية باسم تلّ أبيب هو ذاته الذي أطلقه لاحقًا الكيان المغتصب على عاصمته؛ هذه الكلمة المكونة من قسمين: (أبيب، אביב)، وهي كلمة عبريّة تحمل معنى الرّبيع الذي هو في حدّ ذاته رمز للتجديد، و(تلّ، תל) ويُقصد به المكان الأثري المتكوّن عن طبقات من الحضارات التي سبقت واحدة تلو الأخرى. (Assi, 2018)، وكأنّ هذا العنوان هو اختصار لموقف الصّهيونيّة من فلسطين بوصفها الأرض القديمة الجديدة لهم ولدولتهم. إضافة إلى أن الرواية تميل نحو العرض التاريخي الذي يغلب عليها؛ وذلك واضح فيما قدّمه أعضاء المجتمع الجديد في فلسطين وممثلهم الأساسي "دافيد لوتفيناك" لبطليّ العمل؛ فبيّنوا من خلاله الطريقة التي تحوّلت فيها فلسطين –من وجهة نظرهم- من مكان قاحل ومتخلّف، أو مستنقع؛ وفقًا للصورة التي يقدّمونها إلى مدينة فاضلة فيها كلّ أسباب الرّفاهيّة، وسمات الدّولة الحديثة في 20 عامًا...؛ أي مطابقة السّرديّة الصّهيونيّة المعدّلة التي ادّعت أوّلًا أرضًا بلا

شعب لشعب بلا أرض؛ لتتحوّل بواقعها المأهول والمعمور إلى سرديّة جديدة ذات نبرة استشراقيّة؛ والمقصود هنا تخلّفها وضرورة إعمارها وإنقاذها من التخلّف والتأخّر إلى مصاف التقدّم والازدهار.

لذا كان اختيار "هرتزل" للفضاء الروائيّ القائم على ثنائية المكان (قبل/ بعد) أمراً واضحًا ومهمًّا؛ منطلقًا من رؤية مفادها أنّ حضور الفضاء هنا ليس "**بوصفه أمكنة تدور فيها الأحداث والوقائع الحكائيّة، أو تتمركز حولها الفاعليّة الشعريّة، بل الفضاء كوعي عميق بالكتابة جماليًّا وتكوينيًّا، الفضاء كشكل ومعنى وذاكرة وهويّة ووجود**" (Najmi, 2000, p.12).

وفي الردّ على ذلك يشكّل المكان والإزاحة عنه بؤرة أدب ما بعد الكولونياليّة إذ "**يمثّل الاهتمام بالمكان والإزاحة عن المكان ملمحًا رئيسيًّا من ملامح آداب ما بعد الكولونيالية؛ وهو ما يعني هنا ظهور أزمة خاصّة تتعلّق بالهويّة والاهتمام بتطوير أو استعادة علاقة فعّالة بين الذّات والمكان لتحديد الهويّة**" (Aschroft, 2006, p.322).

لكن السؤال الذي يمكن أن يُطرَح هو: هل كانت الرواية على المستوى الفني، وكذلك الأخلاقي متلائمة مع الطرح الذي أراد "هرتزل" أن يقدّمه؟

**مكانة الرّواية وقيمتها الفنّيّة**

يُمكن اعتبار الرواية من النّاحية الفنيّة متواضعة شأنها شأن الرّوايات التوجيهيّة المباشرة والتعليميّة والتبشيريّة، وهذا ليس بغريب؛ فهو في الأصل ليس روائيًّا، وإنما استغلّ الأدب والرواية لإيصال فكرة ورسالة، والحبكة تكاد تكون غير موجودة، وكما ذُكر سابقًا يغلب عليها العرض التاريخي لبناء الدّولة اليهوديّة المتخيّلة تتولاه عدّة شخصيّات خاصة "دافيد لوتفيناك" الشّاب اليهودي الذي جعله الكاتب ممثلًا للوعي اليهوديّ القادم، أمّا الشخصيات التي قدّمتها فقد كانت كثيرة، وكذلك كانت الأحداث تفتقر للإثارة في كثير من المواقف، فهي رتيبة وتقريريّة في الغالبيّة العظمى منها، فكان يعنيه الفكرة وليس الحبكة، والرّسالة وليس التّأويل.

وفي بناء الشخصيات، تبدو مجموعة من الأمور اللافتة، أهمّها أنّه قدّم للقارئ تلك الشخصيّات المسطّحة التي تدفعه نحو الملل في كثير من حواراتها وتصرّفاتها، وانطلاقه في تقديمها من عقليّة استعماريّة؛ فرغم محاولة "هرتزل" التأكيد على أنّ المجتمع الجديد في فلسطين متعدّد الثّقافات، وأي شخص يريد المساهمة، وعلى استعداد لتولي واجبات المواطنة، مرحب به للانضمام إليها والحصول على الفوائد الجوهريّة المرتبطة بالبنية التحتيّة الجديدة في أكثر من موقف، ورغم إصرار الشخصيات على أن الأصول القوميّة والدّين لا يحدثان أيّ فرق على الإطلاق في وضع الشّخص، فإنّه قدّم الشّخصيّات الفلسطينيّة (ممثلة هنا بشخصية رشيد بيك، وزوجته فاطمة التي كان ظهورها محدودًا)، بتلك الصورة النمطيّة للفلسطيني في الأدب العبريّ؛ وهو ذلك النوع الذي يمكن أن يُطلق عليه اسم المتملق النموذجي لأسياده المستعمرين.

والملاحظة الثانية أنّه في ذكره للشخصيات اليهودية تجاهل اليهود الشرقيين؛ وفي هذا نظرة استعلائيّة استعماريّة حتّى مع من يحملون الانتماءات الإيديولوجيّة ذاتها؛ فالصّهيونيّة شكل من أشكال الاستشراق الذي لا يمثّل نفسه بنفسه، وإنّما يأتي تمثّله من خلال الأنا، وهذا أمر مألوف في الرّوايات الاستعماريّة فـ "**المبادئ القومية الأوروبية عن الدم والأرض (Blut und Boden) ستشكّل الدليل الموجه لاختراع الصّهيونيّة لليهود كأمّة لها أرضها، ومن أجل تحقيق هذا الغرض، كان البند الأوّل في أجندتها استعمار هذه الأرض واستيطانها**" (Massad, 2009, p.377).

والمهمّ هنا هو توظيفه للشخصيات الفلسطينية، وتقديمه لها، والوظيفة التي أدّتها.

**ثنائيّة الحضور والغياب للشخصيّة الفلسطينيّة**

يقوم بناء الشخصيات في رواية "أرض قديمة جديدة" على واحدة من الثنائيات التي وضعها البنيويون وعلى رأسهم "دي سوسير" للنصّ، ثم تبناها التفكيكيون وعلى رأسهم "جاك دريدا"، وهي الحضور والغياب، هذه الظاهرة التي تنطوي على مرجعين أساسيين: الأول موجود والثاني معدوم، وابتعادها من الثاني يقرّبها من الأول، واقترابها من الأول يبعدها عن الثاني، بمعنى أنّ هذه الخاصيّة الثنائيّة هي التي تحكم بنية النصّ، وتعطيه الحقّ في الوجود؛ إضافة لما تقدّمه من وظيفة اجتماعيّة وثقافيّة مميّزة؛ لذا فالحديث عن هذه الثنائيّة هو حديث متعدّد الزوايا؛ فبعد أنّ شكّلت مع "سوسير" فلسفة خاصّة حملت مع "دريدا" أبعادًا خاصّة (Dreda, 2005, p.22)، وبذا انتقلت من فلسفة "هيجل" التي حملت فيها فلسفة الحضور

معنى مرتبطًا بقدرة الوعي على إدراك ما حول ذلك؛ إذ إنّه "**لا يعترف إلا بما يحضر لديه، فيتخذ شكل الدّلالة والمعنى والقانون والهويّة**" (Obaidullah, 2000, p.22)؛ مما يجعل المختلف يشكّل في الوعي تساؤلًا لا يمكن إدراكه، لكنه قابل لأن يُسأل، إذ كيف يمكن للغياب أن يحضر، ودون الخوض بعمق في تعريفات (سوسير) ورؤيته المتعلقة بالدال والمدلول؛ إذ يرى أنّ الدال يمثّل حضوراً ماديًا، بينما المدلول يمثّل غيابًا ولكنّه حاضر معنويًا (Khumri, 2001, p.14-15). ودون الغوص في تفاصيل رؤية "دريدا" الذي قدّم رؤية مناقضة حين رفض مفهوم "سوسير" الخاصّ بوظيفة الدّال والمدلول ليأخذ بمفهومه لتحمل في داخلها قوتين أساسيتين، هما: قوّة الاختلاف وقوّة التأصيل (Ravindran: 2002, p.151) ؛ إذ إنّ الحضور هنا يشكّل قلقًا لأنّه دومًا يشي بسؤال، والغياب في النصّ هو "**نتاج فعل القراءة الواعي بإمكانيات الغياب ودلالته في النصّ**" (Obaidullah, 2000, p.215).

من هنا فإنّ محاولة البحث في حضور الشخصيات وغيابها في هذه الرواية تجعل المتلقي يُدرك أنّ "هرتزل" تعامل مع شخصياته الفلسطينيّة المحدودة ضمن ثنائيّة أساسيّة هي الحضور والغياب ضمن مستويات عديدة:

- الحضور والغياب ضمن الصّوت السّرديّ: حضور اليهوديّ وغياب العربيّ.
- الحضور والغياب لشخصيّة الفلسطينيّ الرّجل دون المرأة.
- الحضور والغياب للمرأة الفلسطينيّة؛ حضور اليهوديّة وغياب العربيّة الفلسطينيّة.

فالشخصيّة لها دورها الكبير في العمل، ولا يُمكن بحال من الأحوال الكلام عن الأحداث التي تجري في الواقع المتخيل أو الحقيقي "**دون التطرّق إلى الشخصيّات التي تقوم بها، كما لا يمكن أن نتحدّث عن أشخاص إلا مرتبطين بأحداث معيّنة أو صفات معيّنة**" (Al-Fartousi, 2009, p.69)، ولأنّ الشخصيّة الرّوائيّة بوصفها "**انعكاسًا لعلاقة الرّوائيّ بشخصياته المتخيّلة التي لها أصول حقيقيّة أنتجتها ظروف العصر**" (Alloush, 1985, p.126) ممّا يجعل النّظر إلى شخصيّات "أرض قديمة جديدة" من هذا المنظور كون التعامل مع الشخصيات هنا مختلف عن تعامل الروائيّ معها بالوضع الطبيعيّ؛ فهدف "هرتزل" الأوّل هو التّرويج لمشروعه الصّهيونيّ؛ لذا فإنّ تعامله مع الشخصيات نابع من هذه الفكرة التي ينطلق منها؛ فقد تحوّلت الشخصيّات إلى دمى وظيفيّة تحرّكها يد المؤلّف.

فالغياب هنا غياب مبنيّ على خطّة استراتيجيّة واضحة الملامح، وموظّفة توظيفًا ديناميكيًّا؛ لأنّها الأساس والمحرّك الخفيّ المنظّم الذي تسير خلفه الأحداث؛ مما يحوّل الغياب هنا إلى تغييب متعمّد وتهميش واضح.

**الحضور والغياب على المستوى السرديّ**

يقوم نصّ رواية "أرض قديمة جديدة" على تعدد الأصوات الروائية، فما بين السارد العليم في البداية، ومجموعة السّاردين الذين تولوا مسؤوليّة السّرد من خلال الحوارات المختلفة بين الشّخصيّات أثناء رحلة استكشاف فلسطين بعد عشرين عامًا من بداية العمل، والاجتماعات والخطابات لقيادات الصّهيونيّة في فلسطين وغيرها ... إذ يلمح المتلقّي غيابًا واضحًا للصّوت الفلسطينيّ مع أنّه صاحب الأرض والحقّ والمكان؛ فلا يوجد حضور للفلسطينيّ على المستوى السّرديّ إلا في بضع فقرات يتولاها رشيد بك، في حين تتوالى الأصوات السّرديّة اليهوديّة طوال العمل.

فرغم أن الرّواية البوليفينيّة (متعددة الأصوات) "**ذات طابع حواري على نطاق واسع**" (Bakhtin, 1986, p.59)، ورغم أنّ هذه التعدّدية تقدّم مقوّمات وخصائص مهمّة كونها تعني تعدديّة "**في أنماط الوعي، وتعدديّة في الطروحات الفكريّة، والتعدديّة في المواقف الأيديولوجيّة**" (Hamdawi, 2012)، لكنّ القارئ لا يَلمح هذا في هذه الرّواية إلا من الجانب الصهيونيّ، فتُسمع حواراتهم وأحلامهم وأفكارهم وصراعاتهم الداخليّة ورؤاهم المستقبلية، وفي المقابل لا يُلمح ولا يُسمع الصوت الفلسطيني لأنّه مغيّب، ليس له دور ولا حضور، وحتى حين يحضر خافتًا فإنّه يكون لخدمة الفكر الصّهيونيّ من ناحية، ولإعطائه الشرعيّة والحقّ في البلاد والأرض؛ فالصّهيونيّة نتاج الاستعمار والإمبرياليّة المدعّمة بنظرية تسوّغ الاستيطان واضطهاد الآخر، والاستيطان وكذلك الإمبرياليّة ليست "**مجرّد فعل بسيط من أفعال التّراكم والاكتساب، فكلّ منهما مدعّم ومعزّز بل وربّما كان أيضًا مفروضًا من قبل تشكيلات عقائديّة مهيبة تشمل مفاهيم فحواها أن بعض البقاع والشعوب**

**تتطلب وتتضرّع أن تخضع للسيطرة"** (Said, 1998m, p.80)، وهذا يبدو تماماً في موقف (رشيد بك) في واحدة من المرات القليلة التي سُمح لصوته أن يظهر فيها؛ فحين جرى الحوار بين "كينغز كورت" وبينه حول مكانة الفلسطينيين سكان البلد الأصليين بعد دخول الصّهاينة وامتلاكهم الأراضي وموقفهم من هذا الأمر، وتساؤله إن كانوا يرون أن مكانتهم قد تضعضعت وأوضاعهم اختلفت، كان جوابه مستنكراً **"أيّ سؤال هذا! لقد كان هذا الأمر بركة لنا جميعًا"** (Herzl, 1968, p.100)، فمن الذي يتحدّث؟ هل هو صوت الفلسطينيّ الحقيقيّ؟ وهل يمكن أن يكون (رشيد بك) وأمثاله ممثلين للشعب الفلسطينيّ والوجود الفلسطيني؟! دون شك لا، فمن يتحدّث هنا هو "هرتزل" وأمثاله من الصّهاينة الذين حاولوا فرض أفكارهم وآرائهم دون النّظر لما خلّفوه أوسيخلّفونه وراءهم من دمار بوصف هذا العمل صورة استشرافيّة لما سيكون عليه الحال. إنّه المنهج الرغائبّي الذي يتقمّص شخصيّة الآخر، ويفرض عليه ما يتمناه وما يريده بغضّ النّظر عن الواقع والاختلاف.

ومع أنّ تعدّد الأصوات يُفترض فيه أن يؤكّد الاختلاف بصوره المتعدّدة وبأنساقه المختلفة سواء في مستويات السّرد أو الخطاب إلا أنّه هنا يمكن أن يخرج من دائرة التّعدديّة كونه يمثل صوتًا واحداً وخطابًا واحداً؛ فالبنية السّرديّة المهيمنة تأخذ مساراً واحداً وفكراً أحاديًا؛ بمعنى أنّ "هرتزل" هنا يمارس فعل الكتابة لكّنه منحاز لخطابه بكلّ الطرق الممكنة، وهذا الأمر بدهيّ لمن يروّج لخطابه، إذ كيف لتلك الرؤية الاستعماريّة الاستيطانيّة أن ترى الآخر، أو تحسب حساباً له أو لوجوده؟

**الحضور والغياب على مستوى الشّخصيّة الذّكوريّة الفلسطينيّة**

تمتاز رواية "أرض قديمة جديدة" -كما ذُكر- بمحاولة تغييب الوجود الفلسطيني لحساب تكثيف الوجود الصهيونيّ؛ ومن ثَمّ الوصول إلى أحادية الصوت والفكر والوجود؛ إذ إنّ الاستيطان الإسرائيليّ لا يختلف عن دول الاستعمار الأخرى التي كانت تتعامل مع سكان الدّول التي تستعمرها بوصفهم أشياء بلا قيمة، صحيح **"أنّ وجودهم لذو أثر على الدوام لكن أسماءهم وهويّاتهم لا أثر لها، وهم مَصدر للربح دون أن يكون لهم وجود تامّ، وهذا معادل أدبيّ بكلمات إريك وولف المهنئة لنفسها إلى حدّ ما، بشر دون تاريخ، بشر يعتمد عليهم الاقتصاد والدولة"** (Said, 1998, p.132) لكن دون حضور حقيقيّ وملموس، وهو ما نراه في تمثيل الشّخصيّة الذّكوريّة من خلال شخصيّة رشيد بك، هذا الشّابّ الذي قدّم له "هرتزل" أوصافًا ماديّة إيجابيّة من وجهة نظره؛ ففي الطريق إلى منزل "دافيد لوتينفاك" توقفوا عند منطقة سكنه، ذاكراً لهم أنّ بعض الوجهاء المسلمين يقيمون هناك، ومنهم صديقه رشيد بك، الذي كان واقفًا أثناء مرورهم، فـ**"أمام بوابة حديديّة لإحدى الحدائق التي مرّوا بها وقف رجل بهيّ الطّلعة، في زهاء الخامسة والثلاثين من عمره، ارتدى الملابس الأوروبيّة السوداء، واعتمر طربوشًا أحمر، حياهما تحيّة شرقية"** (Herzl, 1968, p.67)؛ فقد كان ودوداً إلى درجة جعلت (كينغز كورت) يتساءل مندهشًا **"أيّ مسلم هذا؟"** (Herzl, 1968, p.67). رشيد بك الفلسطيني المسلم هو من اختار "هرتزل" حضوره في العمل، وقدّمه بصورة نمطيّة للفلسطينيّ في الأدب العبريّ، وهي شخصيّة المتصالح المحبّ للضيوف اليهود الذي يتعايش مع العدو، ويتكسّب من العمل معه، الذي يسوّغ لنفسه ولعدوّه شرعية الوجود، وقد ورث هذا الأمر من والده؛ في إشارة إلى أنّ هذا الأمر أصيل في الشّخصيّة الفلسطينيّة وليس طارئًا؛ **"فقد تعلّم في برلين، كان أبوه أحد أولئك الذين فهموا فوراً فائدة الهجرة اليهوديّة، وساهم في نشاطنا الاقتصاديّ؛ فأصبح غنيًا؛ ولا يفوتني أن أقول إنّ رشيد بك هو عضو مؤسّس في مجتمعنا الجديد كذلك"** (Herzl, 1968, p.67)؛ لا بدّ أن يكون رشيد بك عضواً مؤسّساً ما دام يحمل فكراً مؤيّداً للوجود الصّهيونيّ، وما دام يجد خيراً واضحًا فكما يقول **"أصحاب الأملاك الذين باعوا أراضيهم بأسعار عالية للمجتمع اليهوديّ، أو الذين حافظوا على أراضيهم في انتظار سعر أعلى، فأنا شخصيًا قد بعت الأراضي لمجتمعنا الجديد، وعلى هذا فقد وجدت خيراً عميمًا"** (Herzl, 1968, p.101)، وكأنّ الأرض الفلسطينيّة محطّ النّزاع مجرّد مسألة اقتصاديّة استثماريّة دون أبعاد سياسيّة وسياديّة مدمّرة، هذا هو الحضور الذي اختاره للفلسطيني؛ فإضافة إلى الصورة الاستشرافيّة التي قدّمها "هرتزل" للعربي (المتأورب) فإنّ حضوره قائم على التّواطؤ والتّماهي مع العدوّ، والانخراط في مجتمعه الجديد دون شعور بوطنه أو إحساس بأنّه فقد شيئًا بل على النّقيض من ذلك وجد نفسه وقد حصل على مكاسب عديدة فقد عاد **"واستأجرها"** (Herzl, 1968, p.101) مرة ثانية؛ وذلك لأنّه حسب قوله **"قد رغبت الالتحاق بالمجتمع الجديد"**

(Herzl, 1968, p.101 )، وهذا اعتراف ضمنيّ من صاحب الأرض بتخلّفه وتأخرّه وكأنّه يقول: اسمحوا لي بالالتحاق بكم لأتقدّم، وحين التحق بهذا المجتمع الجديد بات يتحدّث بلسانه وبوقًا له يروّج مقولاته الاستعماريّة، ويجد في اغتصاب الوطن خيرًا كثيرًا، وهذا ما ظهر من حواره مع "كينغز كورت" الذي تساءل مندهشًا عن نصيب الفلسطينيين الكثيرين الذين لم يكونوا يملكون شيئًا، ليجيبه رشيد قائلًا "**الذين لم يكونوا -يملكون شيئًا- وطبيعيّ أنّه لم يكن من المنتظر أن يخسروا شيئًا ربحوا ولا شكّ، لقد ربحوا فعلًا: إمكانات عمل، رزق، مكانة أفضل. لم يكن ثمة منظر بائس يبعث على الرّثاء كمنظر قرية عربيّة في أرض إسرائيل في أواخر القرن التاسع عشر. لقد أقام الفلاحون في بيوت من الطين بائسة، وكانت العناية بالأطفال معدومة، أمّا الآن فقد تغيّر كلّ شيء. لقد استفادوا من المؤسّسات الكبيرة العامّة سواء أرادوا ذلك أم لا، سواء التحقوا بالمجتمع الجديد أم لا**" (Herzl, 1968, p.102)؛ لا يختلف ما قاله رشيد إطلاقًا عمّا كان يقوله الصّهاينة في العمل طوال الوقت"**إنّ الحضارة فوق كلّ شيء، وقد جلبنا نحن اليهود الحضارة إلى هنا**" ( Herzl, 1968, p.100)، فرشيد كما هو واضح –شخصيّة مجتثّة من جذورها وواقعها، مشتقّة من عقل الكاتب وليس من الواقع-، وهي الصورة التي أراد "هرتزل" أن يرينا إياها، صورة الفلسطيني الذي لا يرى عيبًا أو جريمة في التخلّي عن الأرض؛ فالموضوع من السياسة ويتموضع في إطار الإصلاح والإعمار والاستثمار الأمثل، يرى في خسارة بلاده مكسبًا حقيقيًّا؛ فحين علّق "شتاينك" على الوجود الفلسطينيّ قبلهم إذ قال "**لست أريد إنكار حقيقة أنكم كانت لكم بياراتكم قبل مجيئنا، إلا أنكم لم تستطيعوا الاستفادة منها كما يجب إلا الآن**" (Herzl, 1968, p.100)؛ ليوافقه رشيد بك الرأي "**لقد ازدادت إيراداتنا إلى درجة كبيرة، كما كانت صادراتنا عشرة أضعاف بعد أن حظينا بأحسن طرق المواصلات مع العالم كلّه، حقًا لقد ازدادت قيمة الأملاك جميعها منذ قدومكم**" (Herzl, 1968, p.101)، حتى أنّه لم يتوانَ في الدفاع عن اليهود حين سأله "كينغز كورت" فيما إذا كانوا يرونهم أعداء استباحوا بلادهم؛ لينبري رشيد بك قائلًا "**ما أغرب كلامك، أيّها المسيحيّ! إنّ الإنسان الذي لم يأخذ منك شيئًا وإنّما أعطاك شيئًا- هل تعتبره لصًا؟ لقد أغنانا اليهود، فعلام نتذمّر منهم؟ إنّهم يعيشون معنا كإخوة، فعلامَ لا نحبّهم؟ لم يكن لي من بين أبناء جلدتي صديق أحسن من دافيد لوتفيناك**" (Herzl, 1968, p.103)، يمثّل هذا القول نبوءة واستشرافًا لما سيحصل لاحقًا للأسف الشديد من بعض المتنفذين و(الأفنديّة) في فلسطين، وهذا نراه بشكل صريح في البرقيّة التي أرسلها "حسن شكري"[4] رئيس بلدية حيفا إلى الحكومة البريطانية عام 1921 حين ذهب الوفد الفلسطينيّ الوطنيّ ليحاول إقناع بريطانيا بالعدول عن وعد بلفور؛ وممّا جاء فيها "**نعارض بشدّة موقف الوفد المذكور المتعلّق بالمسألة الصهيونيّة، ونحن لا نعتبر الشّعب اليهوديّ عدوًا يرغب في سحقنا، بل خلافًا لذلك نحن نعتبرهم شعبًا شقيقًا، يشاركنا أفراحنا وأوجاعنا ويساعدنا في بناء وطننا المشترك. نحن على ثقة بأنّ بلادنا لن تشهد تطوّرًا في المستقبل بدون الهجرة اليهوديّة والمساعدات الماليّة. ويشهد على ذلك جزئيًا وضع المدن التي يسكنها اليهود، مثل القدس، حيفا وطبريّة، التي تحرز تقدّمًا مطّردًا، بينما تعيش نابلس، عكا، والناصرة، حيث لا يقيم يهود، تدهورًا مستمرًا**" (Cohen, 2015, p.32). وهذا كان نهجًا واضحًا اتّبعته الحركة الصّهيونيّة لخلق متعاونين يسهّلون تنفيذ مشروع الوطن القوميّ اليهوديّ كما فعل "وايزمان" الذي التقى مع شخصيّات مختلفة من الفلسطينيين وزعماء البدو والمخاتير والوجهاء. ووضع خطّة محكمة وإجرائيّة أمام نشطاء الاستخبارات الصّهيونيّة لتحقيق هذا الهدف في الأردنّ وفلسطين جاء فيها عدد من البنود منها "**تشجيع إنشاء علاقات صداقة مع العرب وفتح نوادٍ للتعاون، والتحالف مع أمراء العشائر المتنفّذة في الجانب الشرقيّ لنهر الأردنّ، وإثارة النّزاعات بين المسلمين والمسيحيين**" ( Cohen, 2015, p.30). ونجد ترجمة تكاد تكون حرفيّة لتصوّرات "هرتزل" عند "كالفاريسكي" رئيس القسم العربي للجنة التنفيذيّة الصّهيونيّة الذي وضع الخطوط العريضة للسياسة الصّهيونيّة المتعلّقة بالفلسطينيين "**إذا بررنا عمليًا، بأنّ تأسيس وطن قوميّ لليهود سوف يعود أيضًا بالنفع على السكّان غير اليهود، فسنجد بين غالبيّة الأفنديّة المسلمين، بمن فيهم الزّعماء، عنصرًا ما سوف يعارض أسلوب العنف والبغضاء، ويستقيل من الجمعيّات الإسلاميّة/ المسيحيّة ... ويتطلّب الطريق الوحيد**

**لكسب قلوب الأعضاء المسلمين الواحد تلو الآخر، منح هؤلاء جزءاً من الفوائد الاقتصاديّة التي يتوقّعونها من تأسيس الوطن القوميّ اليهوديّ. وبعد شراء الأفنديّة، سوف تستمر غالبيّة سكان فلسطين، في المستقبل كما في الماضي، في انقيادها لهذه الطبقة المتحجّرة، وسوف يأتون أيضًا إلى جانبنا"** (Cohen, 2015, p.32). وهذا يدفع إلى التّساؤل: أين الفلسطينيّ الحقيقيّ الذي يقاوم ويدافع عن أرضه؟ وأين الفلسطيني الرافض للوجود الصهيونيّ؟ وأين الفلسطينيّ القويّ القادر على إيصال صوته عاليًا والتّعبير عن وجوده؟ وهل هذا هو الحضور الذي اختاره للفلسطينيّ؟ طبعًا يتعذّر على "هرتزل" الاعتراف بالحقيقة، وطرح مخاوفه وهواجسه من رفض المجتمع المحلّيّ المتوقّع لقدوم اليهود، ولو فعل ذلك لوضع الحركة الصّهيونيّة أمام خيارات ليست مستعدّة لها؛ فالاعتراف بالمقاومة المتوقّعة يعني الاستعداد العسكريّ، وهذا لم يكن متوفّرًا حتّى ذلك الوقت، وليس له إلا طرح النوايا الطيبة التي يتوقّع مثلها من العربيّ؛ حيث إنّ سوء النيّة بالعربي سيظهر الصهيونيّ شكّاكًا وعدوانيًا وما شابه ذلك.

والغياب هنا أيضًا يحمل مدلولًا آخر، غياب فرضته دوافع الصّهاينة بتصوير الفلسطينيين بصورة موافقة للإيديولوجيّة الصّهيونيّة التي تعمل على إظهارهم بصورة بذيئة ودنيئة كما فعل "هرتزل" حين صوّرهم **"كشعب قذر، يبدو مثل قُطّاع الطّرق"** (Massad, 2009, p.382)، في حين كان ظهور الشخصية الصّهيونيّة ظهوراً أوروبيًا ثقافيًا يدفع بوضوح المشروع الثقافيّ الصهيونيّ إلى الوجود فـ **"هدف الصّهيونيّة كان ضمان أوروبيّة إسرائيل لا آسيويتها أو بعبارة الصّهيونيّة (لا مشرقيّتها)"** (Massad, 2009, p.381) ، وهذا الأمر مسوّغ لغياب الشّخصيّة الفلسطينيّة الواعية والمدركة والقادرة على البناء في ظلّ حضور طاغٍ للشخصيّة الصّهيونيّة المثقّفة والقادرة التي تملك كلّ الإمكانيات لتبني مجتمعًا حقيقيًا وتقاوم جميع الظّروف والتحدّيات، وتبني وطنًا من لا شيء، ويمثل الحضور الصّهيونيّ شخصيّة "دافيد لوتفيناك" هذه الشّخصيّة الحاضرة قبل وبعد، قبل غياب "لوفينبرغ" حين كانت الصّهيونيّة فكرة تدعو للسّخرية، ولاحقًا حين تحوّلت إلى حقيقة واقعيّة حقّقت لليهود الوطن القوميّ الذي خططوا لوجوده.

في هذا الانتقال إلى الشّخصيّة الصّهيونيّة تبدو الصورة أكثر وضوحًا؛ فقد أعطى "لوتفيناك" مواصفات إيجابيّة بدءًا بالبعد الماديّ حين قدّمه **"شابًا في الثلاثين قوي البنية مديد القامة، وقد لوحت الشمس وجهه الذي كانت تزينه لحية قصيرة سوداء اللون"** (Herzl, 1968, p.58)، مروراً بصفاته القياديّة وأفكاره التي ساهمت في بناء المجتمع اليهوديّ الذي أراده "هرتزل"، وظهر ذلك بوضوح في عدد من المشاهد في الرّواية، خاصّة أنه اختاره ليكون واجهة الصّهيونيّة، والمروّج لأفكارها، وهذا يبرّر مساحة السّرد الكبيرة التي يظهر فيها صوته، بل يطغى على الأصوات جميعها، فحين أراد الحديث عن تسامح اليهود مع الآخرين في المجتمع الجديد تولى "لوتفيناك" الأمر وهو يخاطب "كينغز كورت" **"يجب أن تعلم بأنّني والذين يشاركونني الرأي لا نميّز بين إنسان وإنسان، إنّنا لا نسأل عن دين الإنسان أو عنصره، يكفينا أن يكون إنسانًا فقط"** (Herzl, 1968, p.64)، وعندما يتحدّث عن تعامل الدّولة مع أبنائها وعدالتها معهم نسمع صوته **"إنّنا نسعى لإيجاد اللائق والصّالح حقًا حتّى وإن كان منطويًا على نفسه في زاويته"** (Herzl,1968, p.72)، ولمّا ظهرت بوادر خلافات في الصّفّ اليهوديّ في أحد الاجتماعات المخالفة لفكر الدّولة لا يُوجد سواه ليحلّ الموقف المتأزّم بكلّ حنكة ودراية رغم عمره الصّغير نسبيًا، ويؤكّد أهميّة الدّولة القائمة على جهد أبنائها جميعًا **"إنّكم اشتغلتم بكلّ الحماس الذي نملكه نحن اليهود لبلادنا المقدّسة، لقد كانت بالنّسبة لنا أرضًا طيّبة لكوننا طيّبناها بحبنا ... لم يفلح هؤلاء إلا في إقامة الدّولة القرية القديمة، أمّا أنتم فقد أسّستم القرية الجديدة"** (Herzl, 1968, p.113)، لقد كان "دافيد لوتفيناك" الصّورة المثاليّة التي رسمها "هرتزل" للصّهيونيّ الجديد، المثقّف الواعي القادر على البناء والعمران، الساعي لتطوير بلاده والعيش ضمن مبدأ التشاركيّة الذي وضعه، المؤمن بأفكار الصّهيونيّة منذ نعومة أظفاره، فمنذ أن كان في العاشرة من عمره حين رآه الدكتور "فريدريك" استطاع هذا الصّبيّ أن يبهره بإيمانه العميق بأنّ الدّولة الصّهيونيّة لا بدّ أن ترى النّور قريباً، مجسّدًا الفوائد الكثيرة من وجهة نظره لما عاشه اليهود من عذابات في أوروبا إذ **"ثمّة فئات كبيرة من البشر تؤمن بأنّ ألوان المرارة والهوان في التجربة التي قادت عمليًا إلى استعبادهم كانت رغم ذلك ذات فوائد (مثل) الأفكار التحرّريّة، ووعي الذات**

**القوميّ، والمنتجات التقنويّة (وهي فوائد) يبدو أنّها مع مرور الزمن جعلت الإمبريالية أقل مضضًا بكثير"** (Said, 1984, p.88)؛ مؤكّدًا أنّ أسلوب السّرد الإخباري الذي تولاه "لوتفيناك" وهو يتحدّث عن تفاصيل بناء أو مغامرة بناء الدولة الصّهيونيّة من وجهة نظره يوصل القارئ إلى فكرة خلاصتها أنّ الرواية بشكل عام لا يمكن أن تسلك نهج السّرد التاريخيّ، بل هي إعادة استنطاق للواقع والتّاريخ معًا؛ للوصول إلى الهدف الأساس، وهو عدم فقدان رواية الصّهيونيّة بريقها في ذاكرة السّارد والمتلقّي في آنٍ معًا، فما كان يسرده يبطن في داخله معاني ودلالات أكثر مما يُظهر؛ حيث يبدو الواقع الفلسطيني واقعًا متأزّمًا متشرذمًا يعاني أزمة الوجود وأزمة الانتماء وأزمة الهويّة، في حين يصل الصّهيونيّ إلى هدفه ويحقّق كيانه ووجوده وهويّته، وهنا ندرك قدرة الحكي (النّصوص الأيديولوجيّة) الموجود في السّرد الروائيّ على تغيير الواقع وقلب الحقائق. فكان هذا النّوع حاضرًا في ظلّ غياب متعمّد للفلسطينيّ الواعي القويّ القادر على البناء والتّضحية.

**الحضور والغياب لشخصيّة المرأة الفلسطينيّة**

الشّخصيّة الفلسطينيّة الثّانية التي تظهر في الرّواية هي شخصيّة فاطمة زوجة رشيد بك، وما يُمكن ملاحظته هو ذلك الظّهور الضّئيل لها الذي لا يتعدّى مشاهد محدودة صامتة؛ ومع ذلك فهو يمكن أن يندرج ضمن ثنائيّة الحضور والغياب بقطبيها، (المرأة الفلسطينيّة مقابل المرأة الفلسطينيّة). و(المرأة الفلسطينيّة مقابل المرأة الصّهيونيّة).

فالصّورة التي قدّمها "هرتزل" لهذه المرأة تخدم فكرته الأساسيّة، وهي صورة لا تختلف في جوهرها عما قدّمه لزوجها؛ أيّ الفلسطينيّ المرحّب بالصّهاينة والصّديق لهم، فقد كان ظهورها الأوّل في المسرح وهم يهمّون بحضور الأوبرا، فحين رأتها مريم أشارت **"هذه زوجة رشيد بك، إنّها صديقتنا، وهي مخلوقة جميلة حكيمة، إنّنا نجتمع في أوقات متقاربة، ولكن في بيتها فقط، إنّ عادات الإسلام -ورشيد بك دينّ جدًّا- تجعل من زيارتها لنا أمرًا صعبًا"** (Herzl, 1968, p.83)، إذن فاطمة صديقة مرحّبة بوجودهم لكنّها امرأة منغلقة، غير قادرة على الخروج من منزلها وكأنّها حبيسة ويجب أن تبقى كذلك؛ فحين خرجوا في النّزهة التّعريفيّة في البلاد لم ترافقهم، فمن **"وراء الشّبكة الخشبيّة لإحدى النّوافذ في الطّابق الأوّل ارتفعت يد امرأة جميلة بيضاء تلوّح بمنديل"** (Herzl, 1968, p.97)، وحين سأل فريدريك مستغربًا **"وتلك المرأة المسكينة مضطرة إلى البقاء وحدها في البيت"** (Herzl, 1968, p.97)، ردّت عليه مريم بأنّها **"امرأة راضية مسرورة ... إنّني متأكّدة أنّها مسرورة من صميم قلبها بالنّزهة التي يقوم بها زوجها"** (Herzl, 1968, p.98)، هذه هي المرأة الفلسطينيّة التي اختار "هرتزل" وجودها، امرأة بلا شخصيّة وبلا وجود أو كيان، كما أنّها مستلبة ومتواطئة على ذاتها، لقد كانت هي المثال المثير للإعجاب لديه، وهذا واضح في قول "فريدريك" **"ومهما يكن من أمر فإنني معجب بهذه المرأة التي تطيع فتبقى وراء الشبكة الخشبيّة في مثل هذا الصباح"** (Herzl, 1968, p.98)، والأكثر غرابة هو تأكيده على حالة الرّضا والفرح التي تنتابها، وهي تمثّل المرأة الشرقيّة في مجتمع ذكوريّ تقليديّ؛ أيّ أنّ المثال الوحيد الذي وجده والصّورة الوحيدة التي تليق بهذه المرأة هي صورة الخنوع والذّلّ والخضوع الذي تتقبله راضية سعيدة؛ أمّا التفوّق والعمل والبناء فهو عند المرأة اليهوديّة كما هو الحال مع مريم التي **"نهضت من مجلسها قبل أن ينتهوا من الطعام، لقد كان عليها أن تذهب إلى مدرستها"** (Herzl, 1968, p.71)، فهي تعمل **"معلّمة في مدرسة ثانويّة للبنات، وهي تعلّم اللغتين الفرنسيّة والإنجليزيّة"** (Herzl, 1968, p.71)، فهي تعمل ليس لأنّها بحاجة ماديّة بل لشعورها بدورها وأهمّيته؛ ولأنّ المجتمع الجديد أعطاها حقوقها كاملة **"إنّها لا تفعل ذلك بغية الحصول على الرّزق، لقد بلغت مبلغًا والحمد لله لم تعد معه أختي مهدّدة بالعوز، ولكن عليها واجبات، وهي تقوم بها الآن؛ لأنّ لها حقوقًا كذلك، إنّ للنساء في مجتمعنا الجديد كامل الحقوق مع الرّجال"** (Herzl, 1968, p.72)، فدورهنّ واضح ومحوريّ وليس هامشيًا إذ يشاركن في البناء كما يشاركن في السّياسة، إضافة إلى دورهنّ المعنويّ في دفع الرّجال نحو بناء الدّولة إذ **"إنّ لهنّ الحقّ في أن ينتخبن ويُنتخبن.. وهذا أمر بدهيّ، لقد اشتغلن معنا بإخلاص في إقامة مؤسساتنا، وإنّ حماسهن لفكرتنا الكبيرة هو الذي شجّع روح الرّجال"** (Herzl, 1968, p.71-72). وعملهنّ هذا ودورهن يُرى في جميع الشّخصيّات النّسائيّة الصّهيونيّة تقريبًا، فكلّهنّ يقمن بدورهنّ في بناء الدولة، كما لهنّ الحق بالعيش بسعادة واستقرار، ويأتي هذا الشّكل من أشكال الحضور والغياب ملائمًا للفكر الاستعماري الذي

غالبًا ما يتعامل مع الآخر من منطق الغياب؛ إذ **"لا يمنحون كثافة الحضور"** (Said, 1984, p.132) وبالتالي لا يمنحون الوجود، ويصبحون مجرّد أشكال مفرّغة من مضامينها وموروثاتها وحضارتها. واتخاذ ما يردن من قرارات، أمّا المرأة الفلسطينية فهي مغيبة حتى في حضورها؛ فصورتها ثابتة، إنّها صورة تفتقر للتعدّد والتنوّع، ولا تظهر أبعادها المختلفة المشكّلة لشخصيتها؛ وذلك نابع من رؤية سردية واعية تسعى إلى تغييب يصبّ في جانب الهدف الذي يسعى إليه الكاتب، وهو تأكيد فكرة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.

ومن ناحية فنيّة فالمجتمع الفلسطيني آنذاك مجتمع محافظ، وتتجلّى محافظته في احتجاب المرأة عن المجال العام، ومن ثَمّ لو تطرّق للمرأة الفلسطينية وأعطاها دورًا مثل دور رشيد بك لوقع في المحظور؛ أي أفقد روايته الكثير من المصداقيّة وهي غير متوفّرة أصلًا.

**هرتزل والوعي الزائف في رواية "أرض قديمة جديدة"**

أطلق كارل ماركس هذا المصطلح على هذه الظاهرة التي تنطلق من الأيديولوجيا وهي تروم تشويه الحقائق، وتزييفها بقصد تبرير موقف السلطة، أو الطبقات الاجتماعية المهيمنة؛ وقد جاء هذا التّعبير النّقديّ بسبب الرّغبة في تفنيد مثالية هيغل التي تجعل البشر أدوات في أيدي التاريخ (Mabrouk, 2011, p.108). ويعرّفه محمود أمين العالم بأنّه ذلك **"الوعي الخاصّ الذي تعبّر من خلاله السلطة عن مصالحها، وأنّه الوسيلة النظرية الأساسية التي تعكس المصالح الطبقية فيها ومن خلالها"** (AL-Alem: 1986, p.582)، ومن هذا المنطلق بالذات، من محاولة "هرتزل" تقديم وعي خاصّ يخدم فكرة الدّولة اليهوديّة التي قدّم رؤيته لها في كتابه (الدّولة اليهوديّة) تظهر فكرة الوعي الزّائف، فقد حاول تقديم صورة مغايرة لما حصل لاحقًا على أرض الواقع، صورة تكملها رواية "خربة خزعة" التي سيتحدّث الباحث عنها في الجزء الثّاني من الورقة؛ فقد صوّر بناء الدّولة التي يرغب بها تصويرًا طوباويًّا شبيهًا بمدينة أفلاطون الفاضلة، مجتمعها علماني منفتح ومتعدّد الثّقافات، يقوم في بنائه على مبدأ الاقتصاد المختلط الذي أعطاه سمة التّشاركيّة؛ المُلكيّة فيه عامّة للأراضي وللموارد الطبيعيّة، والعدالة والمحبّة سائدة ممّا يجعل الجميع مقبلًا على العمل والإبداع؛ هذا المجتمع فيه لغات متعدّدة وموانئ حديثة تضاهي تلك الموجودة في أوروبا، إضافة إلى أنّه متعاون ومتحضّر بحيث نجد الأوبرا الفرنسية هي الفن الذي يقبل الجميع على مشاهدته، كما أنّ العرب واليهود يعيشون جنبًا إلى جنب بسعادةٍ وصداقة ووئام، ولا يوجد عدوّ حقيقيّ يقف في طريق هذه الدّولة إلا ذلك الحاخام المعادي للصّهيونيّة الذي يرفض وجود غير اليهود في القدس. لذا فإنّ أيّ شخص قادر على المساهمة ويريدها ومستعدّ لتولي واجبات المواطنة وتقديمها كما يجب فإنّه مرحّب به، فهو يرسم عالمًا مثاليًّا قائمًا على الصّهيونيّة الاشتراكية، عالمًا فيه كل سبل التقدّم، هو لا يرسم دولة **"لم نجتمع هنا لانتخاب رئيس للدولة لأننا لسنا دولة بعد"** (Herzl, 1968, p.203)، بقدر ما يقدّم مجتمعًا أو **"شركة تعاونيّة كبرى تضمّ شركات تعاونية مختلفة الأحجام"** (Herzl, 1968, p.201). لقد خلق "هرتزل" أيديولوجية (وعيًا زائفًا) مبنيًا على قلب الحقائق، وتقديم الاحتلال بصورة إنسانيّة أبعد ما يكون عنها. وهذه الصّورة المثاليّة هي في حقيقة الأمر صورة مغايرة للواقع؛ إذ إنّ الصّهاينة وعلى رأسهم "هرتزل" بطبيعة الحال يرفضون أن يكون هناك غيرهم في هذه الأرض، هم وحدهم من يملكون الحقّ في خيراتها وفي إدارتها والعيش فيها، وقد ظهر ذلك في مواقف مختلفة؛ منها الحادثة الشّهيرة التي حصلت حين **"اكتشف المستعمرون الصهاينة عام 1908م أنّ شجيرات إحدى الغابات التي أنشئت في منطقة بن شيمن قرب اللّد، إحياء لذكرى ثيودور هرتزل، كان العرب هم من زرعوها، قاموا باستئصالها ثمّ أعادوا زرعها من جديد"** (Massad, 2009, p.332)؛ إضافة إلى المقالة المنشورة في الجريدة الإسرائيليّة الرّوسية "نوفوستي" بعنوان "كيف نجبرهم على الرحيل؟" حين اقترحت الصّحفيّة فيها **"أن تهدّد الحكومة الإسرائيليّة بخصاء العرب من أجل دفعهم إلى مغادرة البلاد"** (Massad, 2009, p.332-333)، وهي مثال من أمثلة كثيرة على هذه النظرة المعادية للعرب الرّافضة لوجودهم؛ والتي أضحت نهجًا ثابتًا للصّهيونيّة إذ انتهجت "سياسة تتميّز بمزيد من التعصّب والتّطرف تجاه العرب عامّة، وتجاه الفلسطينيين بصفة خاصّة، وأبدت استعدادها من خلال الغيرة على "أرض إسرائيل الكاملة" لاتّخاذ جميع التدابير الممكنة ( الطّرد- التّرحيل) لحلّ المشكلة الفلسطينيّة. ولم تعُد "المناطق المحتلّة" مجرّد وسيلة من أجل الدفاع عن الدّولة، وفق النّظريّات الأمنيّة، بل أصبحت، وفق هذه الأيديولوجيّة، هدفًا مقدّمًا، وتحوّلت صيغة "الوعد الإلهي" إلى برنامج سياسيّ ملزم"؛ فإذا كان الأمر كذلك يبقى السّؤال: إلى أيّ حدّ يمكن تغيير الماضي لإعطاء واقع مختلف؟

## صورة الفلسطيني في رواية "خربة خزعة"

### "خربة خزعة" بين الوعي القائم والوعي الممكن

### التعريف بالرواية

ربما كانت رواية "خربة خزعة" من الروايات الأولى في الأدب العبري الحديث التي تحدّثت عن قصّة النكبة وما حصل للفلسطينيين من طرد وشتات عام 1948م من خلال شخصية السّارد الذي يسترجع شريط الذاكرة للأحداث التي شهدتها خربة خزعة التي ترمز إلى الأراضي الفلسطينية من تشتيت وعذابات غير مبرّرة، حيث تقوم وحدة من الجيش الإسرائيلي بتنفيذ أوامر النفي والطرد، وتطهير القرية عام 1948. منطلقين من اقتناع خاطئ بأنهم يقومون بذلك دفاعًا عن النفس كون القرويين الفلسطينيين إرهابيين يجب التخلّص منهم، لكن ما قام به هؤلاء الجنود لم يكن أكثر من إطلاق النار على الرّجال الهاربين، وقتل الحيوانات وإرهاب النّساء والأطفال وكبار السنّ الذين عجزوا عن الهرب، وتفجير المنازل، ومع استمرار هذه الأعمال التّطهيرية الوحشيّة يتساءل الجندي وهو يلملم شتات ذاكرته إن كان ما يقومون به هو إعادة تكوين تاريخ اليهود في المنفى من جديد؛ مما يجعله يشعر بالعار الكبير؛ فهذه الرواية ترصد رحلة سيطرة اليهود على فلسطين وتحويلها إلى دولة يهودية في سياق نشاط العصابات الصّهيونيّة التي توحّدت لاحقًا، وكوّنت ما يُعرف بـ "جيش الدفاع" الذي قام بكلّ الأنشطة الهجوميّة والجرائم التي لم يستطع "سميلانسكي" وأمثاله السّكوت عنها بحجّة الضّمير الحيّ والتّطهّر من الإثم؛ فرسم تلك الصورة المشينة لجيش يدّعي الدّفاع والأخلاقية في الحرب، وما تمثله "خربة خزعة" برمزيتها لفلسطين بأكملها، وهي تحمل هذا العنوان الذي جاء ليعطي وظيفة مناقضة للواقع؛ فالخربة بمعناها اللغويّ هي المكان الموحش المهدّم، لكن الجندي ورفاقه لا يرون سوى جمال الطّبيعة وسحرها؛ حين كانت الفكرة المسيطرة عليهم قبل مجيئهم – وربما بتأثير رواية "هرتزل"- بأنّهم سيأتون إلى مكان خَرِب موحش رسمه أدبهم كما رسمه إعلامهم.

### مكانة الرواية وقيمتها الفنّيّة

تأتي قيمة الرّواية ودراستها العلمية كونها سرديّة تمتلك شروط العمل الروائي؛ وهي فنيًّا أفضل بكثير من رواية "أرض قديمة جديدة" كون السارد الذي هو كاتب روائي محترف يقدّم عملًا فنيًا معتمدًا تقنية تيار الوعي بما يحمله هذا النوع الأدبي من إمكانيات تساعد في إظهار مكان العمل إلا أنّ الأهمية الحقيقية تكمن في خارج العمل نفسه؛ أي ارتباطها بالسياق والإدراك الذي يوثّق جريمة الطرد وتوثّق تهجير الفلسطينيين الذي حصل عام 1948م من وجهة نظر إسرائيلية، إذ قدّم رواية تقوم على التّلميح والتّكثيف للوصول إلى هدفه الأساس وهو محاولة التّطهير، فالكاتب يعاني من لحظة صفاء وصحوة ضمير تسير في بناء دائري إذ يبدأ بها "**ولكنّني كنت أعود وأستيقظ بين حين وآخر من جديد، مستغربًا كم من السهل أن أغوى، وأن أضلل مفتوح العينين، وانضمّ بكليتي إلى هذه العصبة الكبيرة من الدّجالين- المجبولة جهالة، ولا مبالاة دودية، وأنانيّة مستهترة مطلقة- مستبدلًا حقيقة كبيرة بهزة كتف متذاكية لمجرم قديم**" (Smilansky, 1981, p.9)، وينتهي بها "**وبعد أن يطبق السّكوت على كلّ شيء، ولا يهتكن الصّمت أحد، ويعجّ بما خلف السّكوت خفية- يخرج الله عندها ويهبط السهل كي يطوّفه ويرى كيف تكون صرخته**" (Smilansky, 1981, p.126). وبإرضاء ضميره المعذّب الذي يبحث عن الصّفح من الضحية بتمثيلها دون حضورها.

وإذا كان "هرتزل" قد قدّم رواية استشرافية تبشيرية بوطن مثالي فإنّ "سميلانسكي" قدّم الصورة الحقيقية لهذا (الوطن)، أو بمعنى آخر إذا كان الأوّل قد حاول أنسنة الكيان وتسويغ الاستيطان؛ وهذا مغاير تمامًا لسياسات الاستيطان الصهيوني والاستعمار القائم على وضع حدود بيننا وبينهم، وما لنا وما لهم، وهو ما أشار إليه إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق حين عرّف المستوطنين بأنّهم "**جماعة من البشر تعيش في بضع هكتارات من الأرض ستقيم حدودًا بين أرضها ومحيطها المباشر وبين ما هو خارج عن ذلك. وتسمّي ما يقع عبر حدودها "أرض البرابرة"، وبكلمات أخرى إنّ هذه الممارسة الكونيّة؛ أيّ تحديد مجال مألوف خارج من مجال "نا" يسمّى مجال "هم" هي طريقة في خلق مجالات جغرافية يمكن أن تكون مطلقة الاعتباطية. وأنا أستخدم كلمة "اعتباطية" هنا لأنّ الجغرافيا التخيّلية من نمط**

**"أرضنا- أرض البرابرة" لا تشترط أن يعترف البرابرة أنفسهم بهذا التمييز"** (Said: 1984, p.84)؛ فإنّ "سميلانسكي" أظهر وحشية هذا الاحتلال، فقد انطلق من معضلة أخلاقية حاول إبرازها لشعوره بفداحة ما قاموا به، لا سيّما أنّها نشرت عام 1949م؛ أيّ بعد عام واحد على النّكبة التي ما زالت جرحًا نازفًا، أو أنّه فعل كما فعل "هرتزل"، بمعنى أنّه أيضًا حاول أنسنة صورة المحتلّ الغاصب ليجعلنا نقع في شَرَك أنّ هذا الاحتلال يملك جانبًا إنسانيًا وأخلاقيًا عاليًا "صحيح أنّ سميلانسكي وحينما وجد نفسه في مهمّة عسكريّة كمثل التي في الرّواية، فارقته وإن بدرجة محدودة الأحاسيس بالارتياح لما يحدث، إلّا أنّ ما ظلّ يلقيها على العرب من الصّفات المفتريات الكاذبات، يفوق تأثيرها على العربيّ كلّ ما تركته تلك الأحاسيس من الألم الداخلي له. قد يرى البعض أن "سميلانسكي" يحاول المضي بعكس تيار الأدب الصهيوني، وأنه يسعى إلى تقديم رؤية انتقادية للدولة اليهودية من خلال تصويره عالم المجموعة العسكرية وما يظهر فيه من العيوب، إلا أنه وهو يفعل هذا، ويصوّر السّلوك الوحشيّ للجنود الإسرائيليين، لم يوقف الهجوم على العربيّ، الذي ظلّ يُقتلُ أمامه بأعصابٍ باردة، تصاحبها اللذة في القتل على نحو ساديٍّ وغريب" (Al-Shami,1997)، وكان يتألّم وهو يرى فداحة ما قام به؛ مما أسقط الرواية في المثالية السّياسيّة والوعظ الأخلاقي، ولعلّ هذا الأمر هو ما دفع الاحتلال لإدراجها في مناهج المدرسة الثّانوية[5].

**الفلسطينيّ و الصّورة النّمطيّة في (خربة خزعة)**

قسّم "سميلانسكي" الفضاء الروائيّ المفعم بالقلق الوجوديّ وتأنيب الضمير لدى البطل إلى ثلاثة مقاطع سرديّة: مرحلة الـ (ما قبل) دخول الجيش، ثمّ دخول الجيش، وبعد ذلك الآثار المدمرة التي خلّفها وجودهم؛ ممّا يجعل هذه المقاطع تقوم على وظائف سرديّة مشتركة في الرّواية هي: الوصول، والقتل والدّمار، والشّعور بالإثم الذي يتطلّب التّطهّر بالكتابة، وهي وظائف قدّمها بصورة قائمة على منطق نفسيّ وإنسانيّ جدليّ؛ فنجد كثيرًا من الشّخصيّات والنّماذج الإنسانيّة في مواقف مختلفة أثناء تنقّل الجنود من منطقة إلى أخرى في رحلة تطهير الأرض من سكّانها الأصليين، وإن كان هذا الظّهور ظهورًا باهتًا؛ فالشّخصيّات هنا شخصيّات نمطيّة نموذجية في المخيال الصّهيونيّ، شخصية العربيّ الضّعيف الجبان المتهالك، وهذا المصطلح يُطلق عادة على **"الشّخصيّة متى كانت تمثّل –أرقى درجات التّمثيل- جملة من الخّصائص أو القيم أو المعطيات المعبّرة عن طائفة محدّدة اجتماعيًا أو مهنيًا أو طبيعيًا"** (Kassuma: 2000, p.98)، وهذه الشّخصيّات رغم ظهورها المحدود إلا أنّها في **"تفاصيل شؤونها فليست أقلّ حيوية وعناية من القاصّ، وكثيرًا ما تحمل الشّخصيّات آراء المؤلّف"** (Hilal: 1973, p.205)، بمعنى أنّه وهو ينتقي شخصيّاته الفلسطينيّة النّمطيّة ألبسها الفكر الذي يريد، وأعطاها الدّور المناسب لفكرته المحورية وقضيته الأساسية، وانطلاقه من وعي قائم بفداحة الجريمة التي ارتُكِبَت، ورغم أنّها شخصيّات ثانويّة، وأحيانًا هامشية إلا أنّها ذات أهمّيّة واضحة وكبيرة في تشكيل الخطاب السّرديّ الذي أراده، وتتوزّع وفق الأنماط الآتية:

**العربي الهارب والقذر**

قدّم "سميلانسكي" الشخصيّات الفلسطينية بصورة نمطية، والمقصود هنا هو تلك الصّورة السلبيّة التي تظهر الفلسطينيّ ضعيفًا أو متخاذلًا ومستسلمًا أو ضحية؛ فقد أظهره بداية دون ملامح ودون كيان؛ إمّا لأنه لا يراه فهو لا وجود له عنده، أو لأنّه يؤكّد فكرة أن فلسطين أرض بلا شعب، لذا لا يلقي بالًا لصفاته، ولا يعطيه سمته الإنسانية، فيبدو بوصفه أعرابيًا هاربًا هنا وهناك **"فإلى أين يهربون؟ قبل كلّ شيء إلى هناك. حسنًا وهناك نزرع لهم ألغامًا فاخرة. أعرابي واحد يتفجر وعشرة ينبطحون على الأرض... ويقعون في الشّرَك بكلّ بساطة"** (Smilansky, 1981, p.26)؛ وهذه الصفة "الأعرابي" دلالة على الفارق الكبير بين اليهود المتحضّرين والعرب الذين لا يعرفون شيئًا عن الحضارة، ولا يدركون قيمة ما يملكون **"فليأخذهم الشيطان" قال غابي "أيّة أماكن جميلة لديهم"** (Smilansky, 1981, p.29)، وفي هذه الاقتباسات نلحظ أمرين أساسيين: أولهما اختلاف النظرة إلى فلسطين بين الكاتبَيْن؛ فقد أظهرها "هرتزل" بوصفها مستنقعًا قبل وجود اليهود، بينما يعترف "سميلانسكي" بجمالها وبخيراتها الكثيرة **"كانت الأرض مقسمة بالأسيجة الشجرية إلى مربعات واسعة وضيقة، منقطة هنا وهناك ببقع خضرة دكنة، وهنا وهناك مكورة بقمم الأشجار الكروية، وبالتلال الموشّحة بزهر "الصفير"، وبالقسائم المحروثة هنا وهناك، كان السّهل مفروشًا بالسكينة، ولا يخجله شيء، ولا أثر لآدميّ على الأرض، ونشيد أرض خصبة يرنّم بالأزرق والأصفر والبنيّ والأخضر وبكلّ ما بينها، مستدفئ في شمس الأصيل،**

**ترنو إلى نور وذهب وإلى قلبها المرتعش خصبًا"** (Smilansky, 1981, p.28-29)، واختلاف الرؤية هنا هو الفرق بين المتخيّل عند "هرتزل" والواقع الحقيقيّ عند "سميلانسكي". والثّاني؛ انطلاقه كما "هرتزل" من نظرة استعلائيّة استعمارية للعرب، ونلمح ذلك من خلال التمييز بين العرب –المتخلّفين- واليهود المتحضّرين سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، فإذا كان يهود "هرتزل" متقدمين ويرتادون الأوبرا فإنّ يهود "سميلانسكي" في هذه المهمّة شخصيات مدلّلة ولا تملك أي رصيد من الشّعور بالتّعاطف والإحساس بالآخر **"سنصطاد البطّ، ونقطع رأسه وننتفه، ثم نشويه على السفود، ثم نحضّر القهوة وعدّة فتيات، ونغني ونبتهج ونستمتع بالحياة"** (Smilansky, 1981, p.28-29)، هم يستمتعون دون الشعور بأنّ ما يقومون به هو تدمير للآخر ويبتهجون بالقتل والدمار؛ لأنّهم يدركون بأنّهم سيعيدون بناءه **"سأخبرك ماذا"، قال غابي، "إنّك بقدر ما تراه جميلًا لديهم الآن – فإنّه عندما نأتي إلى هنا، سيكون أجمل ألف مرّة .. ثق بذلك"** (Smilansky, 1981, p.29)، ولكنّه لا ينسى أن ينظر نظرة احتقار للفلسطينيين لأنّهم جبناء فكما يقول غابي **"كان شبابنا يقاتلون كمن لا أعرف ماذا، وهؤلاء يهربون، إنهم لا يحاولون القتال!"، "دعنا من هؤلاء الأعراب، إنهم ليسوا رجالًا"** (Smilansky, 1981, p.29).

ولعلّ أولى الصّور الظّاهرة بوضوح تظهر من خلال العربيّ القذر أو نظرة هؤلاء اليهود لهم، فهم حتّى لا يستحقّون الحرب ضدّهم **"وكل أولئك العرب القذرون، المتسلّلون لإحياء نفوسهم القاحلة في قراهم المهجورة، أصبحوا مقيتين، مقيتين إلى حدّ الغضب، فما الذي نريده منهم، أي دخل لنا، لشبابنا وأيامنا العابرة، بقراهم المقمّلة المبقّقة، المقفرة، الخانقة، فإذا ما كان ما تبقى لنا هو أن نحارب، فتعالوا نحارب وننهي حربنا، وإذا ما كانت الحروب قد انتهت فدعونا نذهب إلى البيت"** (Smilansky, 1981, p.33)، نلاحظ كيف يتحدّث عنهم باشمئزاز، ويؤكّد أنّ العرب لا يستحقّون حتّى الحرب ضدّهم، أيّ أنّهم لا شيء.

العرب هنا ليسوا فقط قذرين ومتخلّفين، وإنّما مجموعة من الجبناء الهاربين **"صاح شموليك فجأة بالعربية، حين تبدّد الدخان الكثيف "إليك هم هناك إنهم يهربون!" وأشار بيده في اتجاه الكروم قُرب التلال التي تكبّل البساتين"** (Smilansky, 1981, p.40)، ويتكرّر ذكر الهروب في أكثر من موضع **"يهربون ... حتّى ولا طلقة واحدة، أنذال"** (Smilansky, 1981, p.40)، وهذا الهروب ليس صفة عارضة لبعض الفلسطينيين وإنّما هو سمة عامّة تنطبق عليهم جميعًا **"إليك هناك أيضًا، زأر أحدنا وهو يدلّ على حقل كانوا يركضون فيه كالنمل، أشباح كُثر، والذين كان اندفاعهم الغبيّ يتبدّد أكثر كلما كان الحقل أكبر"** (Smilansky, 1981, p.41)، يمكن قراءة كثير من الأمور من هذه الأمثلة، لعلّ من أهمّها التّأكيد على أن الفلسطينيين لم يقاوموا هذا الاحتلال الغاشم؛ فهم ليسوا أكثر من مجموعة جبناء يستحقّون الاحتقار؛ هذا الاحتقار الذي يتجلّى في استخدام اللغة العربية كلّما كان الكلام وضيعًا أو فيه شتيمة دلالة على أنّها وضيعة لا تصلح لأمور بنّاءة كما هو حال أصحابها. إضافة إلى أنّ صورة العربيّ هنا غائمة، فهو دون ملامح أو وجود ماديّ؛ كونه مجرّد كائن لا يمتلك الشخصيّة أو الكينونة الإنسانيّة.

تسيطر هذه الصّورة للعرب على النصف الأوّل من الرواية، ولا تغيب عن نصفها الثاني **"وفجأة نهض اثنان وجريا، وقبل أن نستوعب ما الذي حصل قفزا وغابا بين الشجرات، ثم قام آخر وجرى"** (Smilansky, 1981, p.47)، **""يهربون، يهربون"، قال مويشي، " شدّوا العربات، وحملوا الجمال، ويهربون"، "أنذال" قال شموليك، "لا دم فيهم للاقتتال""** (Smilansky, 1981, p.58).

**الفلسطيني العاجز**

لم يرسم "سميلانسكي" ملامح واضحة للعرب –كما ذُكِر- في النصف الأول من الرّواية، فلم نلمح أي بعد من الأبعاد التي ترسم فيها الشخصية في العمل الأدبي، والظهور الأول لملامح الشخصية الفلسطينية كان في الصفحة الثالثة والخمسين، إذ يظهر في المشهد عجوز فلسطينيّ يذكر لنا السّارد بعضًا من ملامحه الخارجية **"يا خواجا" قال العربي، الذي كان أبيض اللحية قصيرها، وهو لا يزال يسير"** (Smilansky, 1981, p.53)، هو يلاحق الجنود بذل **"الله يعطيك، يا خواجا"...**

**يا خواجا، انتحب العجوز وهو يبسط يديه بتعاقب ويشير إلى الجمل، متنفساً بصعوبة، رعباً وليس عن وهن به، ... الجمل، يا خواجا، الأغراض.. نأخذها ونذهب من هنا، الله يبارك فيكم. نأخذ الجمل ونذهب...**" (Smilansky, 1981, p.54) "**أي نعم يا خواجا، الله يعطيك يا خواجا، رغا العجوز متزلفاً وكان مستسلماً ومخلصاً ومؤملاً ومصلّيَا وجاهزاً لأي شيء**" (Smilansky, 1981, p.55)، ورغم أنّ العجوز وصل إلى مرحلة البكاء وهو يتزلّف ويرتعب من الجنديّ إلّا أنّ هذا كلّه لم يشفع له، وكانت رسالة الجنديّ واضحة إذ "**أطلق اريه النار فوق رأسه، فتقيّأ العجوز واصطكت ركبتاه**" (Smilansky, 1981, p.56)، وحينها قال الجنديّ "**اسمح لي يا مويشي، الأفضل أن أنهيه هنا.. ما حاجتك إلى هذه الجيفة؟ وليعرفوا ولو مرة أننا لا نلعب**" (Smilansky, 1981, p.56)، هذه رسالة واضحة وصريحة بأنّ الفلسطيني سيواجه بالإرهاب، ومحاولة قتل العجوز هي المثال الواضح لذلك. وليس هذا فحسب، فهم فوق إجرامهم يدعون الإنسانيّة حين تركوا العجوز، ملصقين بالعرب تهمة الإرهاب والقتل "**تصوروا يهودياً في مكانه وعرباً في مكاننا! ... أين! لكانوا ذبحوه ببساطة**" (Smilansky, 1981, p.57). لقد كان مثل هذا التساؤل عن معاملة العرب لليهود نوعًا "**من إضفاء الشرعية على التصرفات اللاأخلاقية**" (Oron, 2015, p.340) التي مارسوها ضدّ الفلسطينيين.

العرب الأحياء الذين يواجهونهم هنا هم العجائز لا غير، فكلما توغلوا في رحلتهم لمحوا بعضًا منهم فـ "**على شفا الجرف كان ثمّة شبحان يجلسان كبومتين فوق غصن، أسودان متكربلان، قطعة واحدة، رأسًا وجسمًا. قفزنا، اثنان أو ثلاثة إليهما ولكننا سرعان ما جفلنا واقفين لما رأينا: عجوزين طاعنتين في السنّ، ترتديان ثوبين أزرقين وتتوشحان بمنديلين أسودين، وتربضان جامدتين، منكمشتين حتى الفزع، كانتا مسخين تفوح رائحة القبور المعدّة لهما، شيء لا آدمي، نتن حتى الغثيان، عيونهما صدفية زرقاوية في تغضن الوجه المتعفن، وتنظران إلى المجهول أمامهما، ربما بفزع شالٍ، ربما ببله سخيف**" (Smilansky, 1981, p.60)، هذا الاقتباس الطويل نسبيًا هو جزء يسير من وصف لحالة العربي المتعفّن، وصورته كما يراها هؤلاء اليهود، فهاتان العجوزان عيّنة من أهالي فلسطين الذين يظهرون تباعًا، دون أن تختلف هذه الصورة النمطية، إذ يرى أنهما "**تركتا معرضتين للشمس كخلدين في عزّ الظهيرة، كعاهة خبيثة أودعوها عقر البيت على الدوام، وتكشّفت على حين غرّة بكلّ فظاعتها- وها هما أمامنا**" (Smilansky, 1981, p.61)، وتكون النتيجة الحتمية لتعامل الجنود معهما هي نتيجة لا إنسانية، نتيجة تظهر قبحهم وفظاعتهم، حيث يتساءل السارد "**وما الذي تفعله بهما- إذا لم تبصق عليهما بقرف وتنسل دون أن تنظر إليهما، ثم تولي هارباً من هنا بعيداً- فزعًا**" (Smilansky, 1981, p.61).

واللافت للنظر في هذا كلّه هو تشابه وجهات النظر وتطابقها بين "هرتزل" و"سيملانسكي"، فكلاهما أظهر هذه الصورة البائسة النتنة للفلسطيني رغم أنّهما ظاهريًا ينطلقان من وجهتي نظر مختلفتين، كما أنّهما معًا قاما بتغييب صورة الفلسطينيّ المقاوم القويّ القادر على المواجهة؛ مما يدلّل على طبيعة المنطلقات والثوابت الصّهيونيّة الموحّدة للجميع فـ "بالطّبع ونحن نتحدّث عن يزهار سميلانسكي القادم من معطف الاستشراق ومن أقصى تمثلات الأدب الأوروبيّ في الدّولة اليهوديّة لن يغيب عن أذهاننا تلك المشتركات بين ما يكتبه وما كتبه آخرون صهاينة حول صورة العربيّ الذي (ليس) له صفات أخرى سوى التي نراها في روايته ... مما يعني صعوبة تناول أيّ من إنجازات سميلانسكي في منأى عن الخطابين كليهما معًا: الخطاب الصّهيوني وخطاب الاستشراق" (Yousef, 2021, p.151-152) .

يتجلّى هذا العجز في صُور عديدة؛ ففي ظهور آخر لشخصية العربي؛ يقول إنّ "**ملامح سحنته كانت فارغة من دمها ليس إلى حدّ الشحوب، وإنّما اليرقان والصفرة المخجلة. وفي النهاية بلع الرجل، بعد لأي، ريقه، ثم عاد ومدّ يديه مذعنًا وهو يحاول أن يبتسم ابتسامة قناع بائس، أو ربما ليقول شيئًا ما، فلم يسعفه صوت من داخله أو صدى**" (Smilansky, 1981, p.70)، فالعربي هنا أخرس عاجز عن التعبير غير قادر على الكلام، فكيف يكون في المواجهة؟

**العربي الجبان المتخاذل**

الفضاء الروائيّ هنا زاخر بواقع شخصيّات كلّها تدور في محور واحد هو الانهزام، وكأنّه يريد إيصال هذه الصورة بشتّى الطّرق؛ لذا لا يكتفي بالصّورتين السّابقتين وإنّما يكمل في محور إضافي وهو الجبن أو الشخصية الانهزامية غير القادرة على المواجهة، وهي الصّورة ذاتها التي رأيناها عند الفلسطيني الهارب والفلسطيني العاجز؛ ممّا يدفعنا للبحث عن ماهية الأسباب التي تجعل الروائيّ هنا يحاول زرع الفكر المنهزم وإلصاقه بالفلسطيني؛ وهذا يجعل المتلّقي يلمح تكثيفًا لهذه الصّورة السّلبيّة من خلال ظهور شخصيّة العربيّ الجبان؛ حيث يلعب السّارد البطل دورًا أساسيًا في تكريس هذه الصورة وتنميطها؛ إذ تتكشّف أحداث الرّواية عن ظهور شخصيّة العربيّ الجبان؛ وذلك أثناء سير الجيش في رحلة الاحتلال والتّطهير العرقيّ التي يقومون بها تجاه الفلسطينيين؛ إذ يظهر جبانًا غير قادر على الصمود؛ حيث يلتفت أحد هؤلاء الفلسطينيين إلى غابي مبتسمًا متخاذلًا "**سأقول كلّ شيء يا سيدي، سأقول كلّ شيء**" (Smilansky, 1981, p.70)، وحين تخونه شجاعته ويخونه لسانه الذي تشنّج من الخوف لا نجد سوى صفات التّحقير والشّكّ من اليهود "**جيفة، صرخ غابي، لا بدّ وأنّ هذا الحقير يضمر شيئًا**" (Smilansky, 1981, p.70)، إذ إنّ عدم قدرته على الكلام جعلته عرضة للتكهنات المشروعة ولمزيد من التحقير وبخاصة حين يصفهم بالأعراب دلالة على التخلّف وعدم التحضّر "**لا دم البتة لهؤلاء الأعراب في عروقهم. قال أرييه ساهمًا: ما كنت لأترك قرية كهذه بهذا الشكل، فلو أنّني كنت مكانه هنا لكنتم تجدونني في انتظاركم والبندقية في يدي ... قرية كبيرة كهذه ولا يوجد فيها حتى ثلاثة أشخاص يكونون هكذا، رجالًا. إنهم ما إن يروا اليهود حتى يتغوّطوا في سراويلهم. جيب واحد –كم نحن هنا- مجرّد جيب وبضعة رجال: نحتلّ قرية كاملة**" (Smilansky, 1981, p.71). هذا الكلام يحمل إدانة صريحة للفلسطينيين، ويبيّن أنهم هم من أضاعوا بلادهم لأنّهم جبناء، ولا يستحقون هذا الجمال الموجود في البلد، وتقوم هذه الإدانة على عقد المقارنات مع اليهود وهي في أساسها تقوم على ثنائية الحضور والغياب التي تعامل فيها "هرتزل" مع الوجود الفلسطينيّ؛ إذ يكملها "سميلانسكي" وبصورة أكثر سلبية؛ لأنّها الصّورة الواقعية المتولّدة في فكرهم تجاه الفلسطينيين، وليست الصّورة المزيّفة التي حاول من خلالها "هرتزل" خداع العالم، وتقديم صورة ورديّة للوجود الإسرائيلي في فلسطين. ويؤكّد ذلك التغييب المتعمّد لشخصية الفلسطينيّ الشابّ المناضل القادر على المواجهة في مقابل هذا الوجود المكثّف لليهود "**كيف أنّه لا يوجد في القرية حتى ولا شابّ واحد، وكيف أنّ الجميع هنا هم عجائز ونساء وأطفال فقط**" (Smilansky, 1981, p.73)، فغياب الشباب هو غياب للمقاومة؛ حيث يبدو الفلسطينيون وقد قدّموا بلادهم على طبق من ذهب لهؤلاء اليهود، وفي هذا تناقض واضح مع الإشارات المتعددة واللمحات الاستشرافية التي يقدمها "سميلانسكي" التي سيتناولها الباحث في الجزء الأخير من أنّ الفلسطينيين سيعودون لاسترجاع حقهم في بلادهم والمطالبة بها.

**العربي اليائس المستسلم**

يكمل "سميلانسكي" متلازمة الضعف والتّخاذل التي يقدمها للعربي في روايته، ومنها صورة العربي اليائس المستسلم الذي لا يحرّك ساكنًا لمواجهة خصمه؛ إذ "**كان قد تجمّع بعض العرب والعربيات الذين التقطناهم من هنا وهناك، فجمعناهم وسقناهم أمامنا دون أن نعيرهم أي انتباه، سواء كان ذلك بالنسبة إلى شكلهم أو توسلاتهم، أو إلى بكاء يرتفع هنا ودموع تتساقط هناك، حتى ولا إلى ذلك الذي كان قد أعدّ لنفسه، لسبب ما، علمًا أبيض، مما تيسّر له، وخرج إلينا يلوح به، ويتمتم خطابًا**" (Smilansky, 1981, p.82)، فالعربي لا يملك سوى الإذعان لمحتلّه ولا يفكّر حتّى بالدّفاع عن نفسه، وهذا يستوجب بالمقابل ردّ فعل مناسب من عدوّه فـ "**لم يثر فينا غير السأم، وغضب لا يفسّر، كان يزداد بنا حدّة شيئًا فشيئًا، إلى أن تحوّل إلى قسمات مضطهدة على وجوهنا**" (Smilansky, 1981, p.82).

لقد قدّم "سميلانسكي" هذه الصور السّلبية للعرب، وغيّب الصورة الإيجابيّة المقاومة؛ لأنّه يرى أنّ كلّ العرب مذنبون، فرغم حالة الضعف هذه فإنهم قادرون على إيذاء اليهود، فهم "**يستطيعون وأي استطاعة. فعندما يبدأون بزرع الألغام في الطريق لك، وينهبون المستوطنات، وفي كلّ فرصة تلوح لهم، فإنّك ستشعر عندها بهم**" (Smilansky, 1981,p.97).

ومن ثَمَّ فإنّ كلّ ما يحصل معهم ما هو إلا ردّ فعل لما قاموا به تجاه اليهود –من وجهة نظره- **"استعرضت أمام ناظري كلّ تلك المصائب والمآسي التي جرّها العرب علينا. ردّدت أسماء الخليل وصفد وبئر طوبيا وخولدا. تشبّثت بالضرورة وهي ضرورة مؤقتة، ستنتفي مع الأيام هي الأخرى، عندما يستتب كلّ شيء"** (Smilansky, 1981, p.101). وهو **"لم ينفِ صفة حرب الاستقلال كحرب اللا خيار، بل لم يستبعد حتى كونها حربًا دفاعية، وحرب حياة أو موت"** (Smilansky, 1981, p.102)، لكن مشكلة "سميلانسكي" كانت في الأداة وفي الأساليب العنيفة الجديدة التي خالفت ما كان يؤمن به من معتقدات.

**خربة خزعة من الوعي القائم إلى الوعي الممكن**

اختار "سميلانسكي" -كما ذُكر- لروايته أسلوب تيار الوعي، وقد يكون هو الأنسب للحالة النفسيّة التي يعاني منها السّارد؛ إذ يبدو أنّه كان واعيًا للمقارنة بين مثاليات الحركة الصّهيونيّة والواقع المشين الذي وقعت فيه، ولمسه لمس اليد عندما اكتشف طبيعتها من خلال تاريخ الصّهيونيّة وعلاقتها الوظيفيّة بالاستعمار الذي حوّلها إلى تابع في النظام الإمبرياليّ العالميّ؛ ثمّ جرّده من إنسانيته التي يحاول البحث عنها؛ لتضييق الهوّة الفاصلة بين السّارد والعالم هنا؛ لأنّه التزم بميثاقه الإرجاعي؛ أي أخرج التاريخ من الوهم الذي وضعه فيه "هرتزل" إلى الحقيقة، وخضع عمله لمقتضيات البيئة الفنية؛ إذ كثّف من تدخله عبر المونولوج الداخلي للتعليق على الحدث التّاريخي محاولًا تفسيره بتساؤلات وضعته في أزمة ضمير مع ذاته ومع إنسانيته التي اكتشف غيابها في "خربة خزعة"؛ مما سوّغ استخدام تيار الوعي. فتيار الوعي في علم النفس يعبّر عن الانسياب المتواصل للأفكار داخل الذهن" (Zaytouni, 2002, p.66)، أو أنّه **"جريان الذهن الذي يفترض عدم الانتهاء والاستواء"** (Ghanem, 1993, p.9)، وهو ينطلق من وعي واضح لما قد حصل؛ لأنّه جزء منه، والمقصود بالوعي **"منطقة الانتباه الذهني التي تبتدئ من أعلى مستوى في الذهن فتمثله، وهو مستوى التفكير الذهنيّ والاتصال بالآخرين"** (Hump.hrey, 1975, p.16)؛ بمعنى أنّ هذا الوعي يسير ضمن مستويات متدرجة كما يرى "همفري"، إذ يبدأ من **"أدنى مستوى وهو المستوى الواقع فوق منطقة النّسيان مباشرة، وتنتهي بأعلى مستوى وهو المستوى الذي يتمثّل في الاتّصال اللغويّ"** (Hump.hrey, 1975, p.17)، ومن يتبع معنى الوعي لا بدّ أن يرى أنّه يحمل معاني عديدة تبعًا لحالات الوعي التي هي في الغالب متغيّرة؛ لأنّها قد تكون عفوية أو مقصودة (Davidov, p.292)، ومن هذه النقطة بالذات يبدو أنّ "سميلانسكي" اختار حالة من حالات الوعي المقصودة، فانتقل بالوعي إلى أعلى حالاته، وهي مرحلة التّعبير اللغويّ، وهذا النّوع من الوعيّ هو ما أطلقت عليه البنيوية التكوينية اسم (الوعي القائم) وهو ذلك **"الوعي الواقعي الموجود لدى الشخصيّة في الحاضر، وهو الوعي الموجود تجريبيًا على مستوى السّلب"** (Hamdawi, 2006)، بمعنى أنّه **"وعيّ لحظيّ وفعليّ، من الممكن أن يعي مشاكله التي يعيشها، لكنه لا يملك لنفسه حلولًا في مواجهتها والعمل على تجاوزها"** (Abdel Azim, 1998, p.54)، هذا الوعيّ تشكّل عنده من مواجهته لنفسه، ومراجعته لما حصل بعد انتهائه، منذ أول كلمة في افتتاح السّرد **"صحيح، أنّ ذلك كله قد حصل منذ زمن بعيد، ولكنه، ومنذ ذلك الوقت لم يتركني"** (Smilansky, 1981, p.9)؛ ذلك أن قدرًا كبيرًا من السّرد هو وعيّ السّارد الذي يحارب إحساسه بالواجب والدّوافع التي يراها من وجهة نظره أقلّ احترامًا ممّا جعله يتساءل في نهاية العمل **"ما الذي نفعله، إلى الجحيم، في هذا المكان"** (Smilansky, 1981, p.9)، وجعلته عاجزًا عن الصراخ وعن التّراجع عمّا قاموا به وهو يرى الفلسطينيين وقد تهجّروا في الشّاحنات التي كانت تقلّهم **"لو أنّني أستطيع الذهاب إليهم الواحد تلو الآخر وأسر إليهم: عودوا الليلة، فنحن ذاهبون من هنا حالًا، وستظل القرية فارغة – عودوا. لا تتركوا القرية خالية!"** (Smilansky, 1981, p.124)؛ ولأنّه لم يتمكّن من فعل هذا بدافع الواجب العسكري الذي كان يقوم به هو ومجموعته، فلم يملك إلّا الاستسلام والشعور بالضآلة، فقد **"أصبح كلّ شيء شاسعًا فجأة، كبيرًا، كبيرًا. ونحن كلنا صغارا ولا أهمية لنا"** (Smilansky, 1981, p.125)، ومع أنّ الرّواية صدرت بعد النكبة بعامٍ واحد فقط؛ أي قبل وقت طويل من ظهور مسألة الذاكرة التي ركّز عليها السّارد غير مرّة في العمل، لكن الأمر يبدو وكأنّه كان

في لحظة الكتابة المشحونة لأنّه كان يرى أن مهمّته بالفعل هي إنقاذ هذا التاريخ من النسيان؛ فهو يعرف دون غيره من الجنود أنّ هذه القصّة لن تختفي بل ستبقى للأبد، وسيأتي من يطالب بحقه المشروع بهذا الوطن "**كان لدي وعي واحد كمسمار مثبت، بأنه لا يمكنني التسليم بشيء، ما دامت تتلألأ دموع طفل يسير مع أمّه المتمالكة لنفسها بغضب دموع صامتة، ويخرج إلى المنفى، حاملًا معه صيحة ظلم، وصرخة لا يمكن أن لا يكون في العالم ثمة من يلتقطها في الوقت المناسب**" (Smilansky, 1981, p.126)، وما يقوله السّارد ضمنًا في هذا الكلام أو يلمح إليه هو تلك الرؤية الاستشرافية بأنّ القصة لم تنتهِ وأنّ أصحاب الحقّ لن يتركوا حقّهم، وسيعودون يومًا للمطالبة به، حتى الصغير سيكبر يومًا وسيعاود الانتقام، وستكون العواقب وخيمة، إذ تداعت في السّياق النّصّي هنا ملامح لحركة استباقية من شأنها الإشارة لما سيحدث في المستقبل، وقد يكون قد قام بقياس الأمر على ما عاناه اليهود في رحلة شتاتهم كما يقولون؛ وهذا ما دفعه غير مرّة لإقرار بأنّ هذه الأرض ليست لهم، سواء على لسان السارد "**كانت أعماقي كلّها تصرخ: مستوطنون مغتصبون، صرخت من أعماقي، كذب، صرخت، خربة خزعة ليست لنا**" (Smilansky, 1981, p.126)؛ لذا كان طبيعيًا أن يؤكّد بأنّهم أجرموا في إخراج الفلسطينيين من أرضهم "**فقلت لمويشي: ليس لنا أي حقّ في إخراجهم من هنا**" (Smilansky, 1981, p.127)، وحتى الصوت الآخر، صوت الجنود الذين يمثلون وجهة النظر الأخرى لم يخرج عن الإقرار بأنّ فلسطين ليست لهم، وإن كانوا يحاولون التّسويغ وتقديم المبررات للجرائم التي قاموا بها كما جاء على لسان مويشي "**ولكنهم هؤلاء هم هناك في الشاحنات الآن ولن يكونوا، وفي الحال، سوى صفحة قد انتهت وانطوت. بالتأكيد. أليست هي حقّنا؟ أو لم نحتلها؟**" (Smilansky, 1981, p.130). إنّه المشروع الصهيوني القائم على أنقاض البشر، وعلى هجرة اليهود وإعمارهم للمكان "**كيف لم أفكّر في ذلك من قبل. خربتنا خزعة، مسائل إسكان ومشاكل استيعاب! بالهتاف نسكن ونستوعب، بل وكيف: سنفتح استهلاكية، وننشئ مركزًا ثقافيًا، وربما كنيسًا أيضًا. وسيكون هنا أحزاب، يتجادلون على أشياء كثيرة. يحرثون حقولًا، يزرعون، ويحصدون، ويصنعون العجائب. فلتحيا خزعة العبرية! من ذا الذي سيطرأ في ذهنه ذات يوم، بأنها كانت ذات مرة خربة خزعة التي طردنا أهلها وورثناها. وأننا جئنا، أطلقنا النار، حرقنا، نسفنا، ركلنا، دفعنا، وهجرنا؟**" (Smilansky, 1981, p.131-132)، بمعنى أنّ (خربة خزعة) كما يراها بائدة بالعرب منبعثة باليهود من ناحية، ولكنه من ناحية أخرى يختلف في وجهة نظره مع "هرتزل" الذي كان يرى أنّ فلسطين هي أرضه وأرض آبائه وأجداده، وهو يؤكّد أنّ ما قام به اليهود هو عملية تطهير عرقي واضح المعالم ومثبت، واستيلاء على أرض الغير، منطلقًا من وعي قائم حقيقي لما حصل إلى وعي ممكن "**فإذا كان الوعي القائم هو وعي التكيف والمحافظة على الواقع، فإن الوعي الممكن هو وعي التغيير والتطوير، ويصبح الوعي الممكن في كلية العمل الأدبي المنسجم رؤية للعالم وتصورا فلسفيا وإيديولوجيا**" (Hamdawi, 2006)، هذا التصور الذي أثبت فيه أنّ الفلسطينيين لن يسكتوا، وسيقاومون ويعودون للدفاع عن وطنهم واستعادته.

**سميلانسكي وأدب ما بعد الصّهيونيّة والكولونياليّة**

قد لا يكون "سميلانسكي" من التيّار المعادي للصّهيونيّة، أو ما يُعرف بما بعد الصّهيونيّة وهو "تيار فكري إسرائيلي ظهر نتيجة الأزمة الفكريّة المستمرّة في الصّهيونيّة منذ نشأة الدّولة اليهوديّة وحتّى الوقت الحاضر، يضمّ مجموعة من المؤرّخين الجدد وعلماء الاجتماع الانتقاديين وبعض الكُتّاب في مجالات الفكر والثقافة والفنّ ضمن إطار اتّجاهات تجديديّة وانتقاديّة وانقلابية للصّهيونيّة. وتدور أطروحاته الفكريّة حول جعل إسرائيل دولة إسرائيليّة طبيعيّة لكلّ مواطنيها" (Mahdi, 2016, p.40)، لكنّه قام بأعماله بتعرية الوجه الآخر للكيان المغتصب، واستطاع تفكيك سرديتها والتشكيك فيها؛ كما فعل غيره من أدباء ما بعد الصّهيونيّة؛ ممّا أقلق الحركة الصّهيونيّة قديمًا وحديثًا؛ فقد أشار الباحث جوزيف مسعد لهذا الأمر في ردّه على (بني مورس) في المناظرة التي حملت عنوان: التاريخ على المحكّ (2002)[6] جاء فيها أنّ الأصوات "**المناهضة للصهيونية تواجه باستمرار بالعداء وبسياسة إسكات أي نقد يهودي معادٍ للصهيونية داخل المنظمات اليهودية**" (Massad, 2009, p.334)، وهذا ما يفضح زيف الديمقراطية والتعدّد الإسرائيليين، وما يثبت كَذِب ادّعاءات "هرتزل".

الأرض عند "هرتزل" الممثل للعربي الفلسطيني لا تساوي شيئًا؛ وهي خربة مهجورة أو بور، واستغلالها واستيطانها مطلوب وضروريّ أو هكذا تقودنا المقدمات إلى هذا الحكم والاستنتاج، لكن ما وفّر له تماسك مغالطته هو تغييب الواقع؛ فقد فبرك ونمذج الآخر امتدادًا لا يملك احترام الآخر أو الاختلاف، لكن الحقيقية أنّ قضية الأرض ليست الإعمار بل السيادة، وليست الاستثمار بل الاحتلال والاستيطان ومن ثَمَّ فإنّ شخصيّة (رشيد بك) التي جعلها متعاونة وراضية ليست سوى منظور للمرور.

**خاتمة**

ينتهي تحليل الدراسة لصورة العربي في الأدب العبري، من خلال روايتيّ "أرض قديمة جديدة" و"خربة خزعة"، إلى حصره في ثنائية ضدية، لا تفسح المجال لاحتمالات إيجابية أخرى. وقد أوهمت ذاتها بالشمول والكلية، وخلصت إلى عدد من النتائج يُمكن إجمالها فيما يلي:

1. جاءت صورة العربي كما رسمها كلّ من الكاتِبَين منمّطة، مسقطة ومصطنعة، لكن مفرداتها ممثلة بالنخبة أو برشيد بك وأمثاله عند "هرتزل"، أو الهاربين الجبناء والضحايا المساكين الذين يثيرون الازدراء والشفقة عند "سميلانسكي".
2. ليست نماذج الرّوايتين كافية للتعميم من الناحيتين الواقعيّة والمنطقيّة، والحكم على الشعب الفلسطيني، بدون معرفة الفلسطيني الآخر (الثائر، والمقاوم والواعي لمخاطر الاستيطان).
3. احتكر الاثنان عملية التمثيل، فلم يفسحا للعربي الحقيقي أو الآخر التكلم والتعبير عن ذاته، وهي سرديّة صهيونيّة استشراقيّة تسوّغ ذاتها بذاتها بعيداً عن الموضوعية والتّاريخية.
4. غيّب الأدب العبريّ الآخر (الفلسطيني) كما ظهر في الروايتين؛ ليملأ الفضاء العام في الأرض التي كانت بلا شعب ثم صارت بيد شعب عديم الكفاءة لا يستحقها. وهي من المقدمات المغلوطة التي رسمتها الصّهيونيّة سياسيًّا وفكريًّا وأدت إلى النتيجة الحاسمة التي أوصلت الغرب المتعاطف مع طروحاتها لدعمها في إقامة الكيان الصهيوني في أرض الميعاد التي بقيت وستظل خربة إلى أن يأتي اليهودي المهاجر لإصلاحها واستيطانها.
5. لم يكن النّدم والتّطهير عند"سميلانسكي" قادرًا على تغيير مجرى الأحداث؛ وكأنّ التطهير العرقي والطرد متلازمة حتميّة وموضوعيّة لإقامة الوطن القوميّ اليهوديّ في فلسطين.

# The Image of the Palestinian in Modern Hebrew Novel between "Old New Land" and "Khirbet Khazaa"

Nida'a Ahmad Masha'l
*Department of Arabic Language, Philadelphia University, Amman, Jordan.*

**Abstract**

This is a descriptive, analytical, and comparative study, within a postcolonial perspective, of two important novels in the Hebrew literature. The first novel is *Old New Land*, published in 1902 and often viewed as a political novel that promotes the Zionist ideology, which has used it as a means to justify settlement. This settlement was seen as beneficial to the indigenous people who were expected to welcome the new immigrants in a wishful way showing the Arabs as peaceful and cooperative, in line with the Zionist literature and ideology.

Smilansky's novel *Khirbet Khazaa*, published in 1949, subscribes to the literature of confession, testimony, and self-purification. This novel highlights the systematic expulsion and humiliation practices of the armed Zionist gangs. The writer, who has taken part in such practices, and thus felt guilty and unable to suppress his feelings any longer, has disclosed his confession through writing. In light of this, the novel has offered a description of an eyewitness of the Arab character as a victim surrendering to his/her destiny.

In contrast, the national, resisting, and conscious Palestinian character has been totally absent from the two novels and the Hebrew narrative at large. This Palestinian image is actually strong enough to demolish the subjective pillars of the Zionist narrative.

**Keyword**: Presence and absence, the other, possible consciousness, false consciousness, Hebrew novel.

**الهوامش:**

[1] يزهار سميلانسكي كاتب إسرائيلي من أبرز الكتّاب الإسرائيليين من جيل 1948، ولد سنة 1916 في مستعمرة رحبون في فلسطين لأبوين يهوديين من أصل روسي، هاجرا إلى فلسطين، كان ضابطًا في حرب 1948، ثمّ أصبح نائبًا في الكنيست الإسرائيلي، له العديد من الأعمال التي كشفت الوجه الآخر للاحتلال الغاشم.

[2] انظر كتاب ثيودور هرتزل (2007): الدولة اليهودية، ترجمة: محمد فاضل، ط1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة. وترجم أيضًا تحت اسم (دولة اليهود) وهو الاسم الأكثر شيوعًا.

[3] مؤتمر بال هو المؤتمر الأوّل المنظم للحركة الصهيونية، عقد في سويسرا في 1897/8/29م، وأقرّ بأن هدف الصّهيونيّة الأوّل هو إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

[4] حسن شكري هو رئيس بلدية حيفا ورئيس الاتّحادات الإسلاميّة الوطنيّة، انتخب رئيسًا لبلدية حيفا عام م1914، وتوفي سنة 1940م، وقد حضرت العديد من القيادات الصّهيونيّة جنازته.

[5] أثارت جدلا كبيرا جدا ، ومقالات ودراسات كثيرة أعدّت حولها ، كان معظمها مضادا لها ، فمنهم من اتهمه بأنه يشوّه صورة المحارب الإسرائيلي وضميره ، ومنهم من ادّعى أنه لم يبرز أبدا حقيقة الفلسطينيين.

[6] مناظرة نشرت للمرة الأولى عام 2002.

**المصادر والمراجع بالعربية**


أشكروفت، بيل – غريفث، غاريت- تيفن، هيلين. (2006). **الرّد بالكتابة، النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة.** ترجمة. شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة.

أورون، يائير. (2015). **المحرقة، "الانبعاث"، النكبة.** ترجمة. أسعد زعبي، مراجعة وتقديم. أنطوان شلحت، ط1، مؤسسة الأيام، رام الله.

باختين، ميخائيل. (1986). **شعرية ديستوفسكي.** ترجمة. د. جميل ناصيف التكريتي، دار توبيقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، المغرب.

حمداوي، جميل. (2012). **الرواية البوليفينية أو الرواية متعددة الأصوات.** الشبكة العالمية للمعلومات.

حمداوي، جميل. (2006)، **مدخل إلى البنيوية التكوينية.** الشبكة العالمية للمعلومات.

خمري، حسين. (2001). **الظاهرة الشعرية الحضور والغياب.** ط1، اتحادالكتاب العرب، دمشق، سوريا.

دافيدوف، لندال. (د.ت). **مدخل إلى علم النفس.** ترجمة. سيد الطواب وآخرون، ط2، القاهرة.

دريدا، جاك. (2005). **أركيولوجيا التوهم/ انطباع فرويدي.** ترجمة. عزيز توما، مشاركة وتعليق. إبراهيم محمود، ط1، دار التنوير مركز الإنماء الحضاري، حلب.

رافيندران، س. (2002). **البنيوية والتفكيك تطورات النقد الأدبي.** ترجمة. خالدة حامد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

زيتوني، لطيف. (2002). **معجم مصطلحات نقد الرواية.** ط1، دار النهار للنشر، لبنان.

سعيد، إدوارد. (1984). **الاستشراق (المعرفة، السلطة، الإنشاء).** نقله إلى العربية. كمال أبو ديب، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.

سعيد، إدوارد. (1998). **الثقافة والإمبريالية.** نقله إلى العربية. كمال أبو ديب، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.

سميلانسكي، يزهار. (1981). **خربة خزعة.** ترجمة. توفيق فياض، ط1، دار الكلمة، بيروت.

الشامي، رشاد. (1997). **إشكاليّة الهويّة في إسرائيل.** ط1، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.

العالم، محمود أمين. (1988). **الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر.** ط2، دار الثقافة الجديدة، مصر.

عبد العظيم، صالح سليمان. (1998). **سوسيولوجيا الرواية السياسية.** ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

عبد الله، سيد. (2001). استراتيجيات الغياب في شعر سعدي يوسف (مدخل تناصي). **مجلة ألف**، ع 21، الجامعة الأمريكية، القاهرة.

عبيد الله، عادل. (2000). **التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل.** ط2، دار الحصاد، الأردن.

عاصي، عمر. **تحت أبيب .. الوجه الآخر للمدينة العبرية**، مقال على الشبكة العالمية للمعلومات. مدونات الجزيرة نت، تاريخ نشر المادة. 2018/2/11، تاريخ الاطّلاع عليها. 2021/4/28.

علوش، سعيد. (1985). **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة.** (عرض وتقديم وترجمة)، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

غنايم، محمد. (1993). **تيار الوعي في الرواية العربية.** ط2، دار الجيل، بيروت.

الفرطوسي، عبد الهادي أحمد. (2009). **تأويل النصّ الروائيّ في ضوء علم اجتماع الأدب.** بيت الحكمة، بغداد.

قسومة، الصادق. (2000). **طرائق تحليل القصة.** ط2، دار الجنوب للنشر، تونس.

**الكتاب المقدس.** كتب العهد القديم والعهد الجديد. (2002)، ط1، 2003، دار الكتاب المقدس، مصر.

كوهين، هِيلَيل. (2015). **جيش الظلّ (المتعاونون الفلسطينيون مع الصّهيونيّة 1917-1948).** ترجمة. هالة العوري، ط1، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت.

مبروك، أمل. (2011). **الأسطورة والإيديولوجيا.** ط1، دار التنوير، بيروت.

مسعد، جوزيف. (2009). **ديمومة المسألة الفلسطينية، حول الحركة الصَهيونيّة والحركة الوطنية الفلسطينية**. ط1، دار الآداب، بيروت.

مهدي، كاظم علي. (2016). **ما بعد الصهيونيّة**. ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

نجمي، حسن. (2000). **شعرية الفضاء (المتخيل والهوية في الرواية العربية)**. المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب.

هرتزل، ثيودور. (1968). **أرض قديمة جديدة**. ترجمة. مئير حداد، ط1، مطبعة دوكمة، يافا.

هلال، محمد غنيمي. (1973). **النقد الأدبي الحديث**. دار الثقافة، دار العودة، بيروت.

همفري، روبرت. (1975). **تيار الوعي في الرواية الحديثة**. ترجمة. محمود الربيعي، ط2، دار المعارف، مصر.

هرتزل، ثيودور. (2007). **الدولة اليهودية**. ترجمة. محمد فاضل، ط1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.

يوسف، يوسف. (2021). **الأدب الصَهيوني والاستشراق**. ط1، خطوط وظلال للنشر والتوزيع، الأردن.

**Arabic References in English**

Abdel Azim, Saleh Suleiman. (1998). *Sociology of the Political Novel*. 1st Edition, Egyptian General Book Authority, Cairo.

Abdullah, Sayed. (2001). Absence Strategies in Saadi Youssef's Poetry (Entrance to Tanassi). *Alf Magazine,* P.21, American University, Cairo.

AL-Alem, Mahmoud Amin. (1988). *Awareness and False Awareness in Contemporary Arab Thought*. 2nd Edition, New Culture House, Egypt.

Al-Fartousi, Abd al-Hadi Ahma. (2009). *Interpretation of the narrative text in the light of the sociology of literature,* House of Wisdom, Baghdad.

Alloush, Said. (1985). *Dictionary of contempp.orary literary terms (presentation, presentation and translation),* 1st Edition, Lebanese Book House, Beirut.

Al-Shami, Rashad. (1997). *The Identity Problem in Israel*, 1st Edition, The World of Knowledge Series, Kuwait.

Aschroft, Bill, Gareth Griffiths and Helen Tiffin. (2006). *The Empire Writes Back. Theory and Practice in Post-Colonial Literature*. Trans. Shohart ElAlem, Arab Organization for Translation.

Assi, Omar. (2021). *Under Tel Aviv . The other side of the Hebrew city*, an article on the World Wide Web of Information, Al Jazeera Net Blogs, the date of publication of article. 11/2/2018, date of access. 28 April.

Bakhtin, Mikhail. (1986). *Distovsky's poetry,* Tres Jemma. Dr. Jamil Nassif Al-Tikriti, Tobikal Publishing House, 1st Edition, Casablanca, Morocco.

*Bible*. 2022. *Books of the Old Testament and The New Testament.* 1st Edition, 2003, Bible House, Egypt.

Cohen, Hillel. (2015). *Shadow Army (Palestinian collaborators with Zionism 1917-1948),* translation. Hala Al-Auri, 1st Edition, Besan Publishing and Distribution, Beirut.

Davidov, Landal. (n.d). *Introduction to Psychology*, Translation. Sayyid Al-Tawab et al., 2nd Edition, Cairo

Dreda, Jack. (2005). *The Archeology of Delusion/Freudian Impression*, translated by Aziz Touma, particip.ation and commentary. Ibrahim Mahmoud, 1st Edition, Dar al-Enlightenment Center for Cultural Development, Aleppo.

Ghanem, Mohammed. (1993). *The Stream of Awareness in the Arabic Novel*, 2nd Edition, Dar al-Jil, Beirut.

Hamdawi, Jamil. (2006). *An Introduction to Formative Structuralism*, World Information Network.

Hamdawi, Jamil. (2012). *Bolivian novel or multi-voiced novel,* World Information Network.

Herzel, Theodore. (1968). *A New Old Land*, translated by. Meir Hadad, 1st Edition, Dokma Pres, Jaffa.

Herzl, Theodore . (2007). *The Jewish State*, translated by Mohammed Fadhil, 1st Edition, Al Shorouk International Library, Cairo.

Hilal, Mohammed Ghonimi. (1973). *Modern Literary Criticism*, Dar al-Culture, Dar al-Awda, Beirut

Humpp.hrey, Robert. (1975). *The Stream of Awareness in the Modern Novel*, translated by Mahmoud al-Rubaie, 2nd Edition, Dar al-Ma'af, Egypt.

Kassuma, Sadiq. (2000). *Methods of analysis of the story*, 2nd Edition, South Publishing House, Tunisia

Khumri, Hussein. (2001). *The poetic phenomenon of attendance and absence*, 1st Edition, Arab Writers Union, Damascus, Syria.

Mabrouk, Amal. (2011). *Myth and Ideology*, 1st Edition, Dar al-Enlightenment, Beirut.

Mahdi, Kazem Ali. (2016). *Post-Zionism*, 1st Edition, Center for Arab Unity Studies, Beirut.

Massad, Joseph. (2009). *The Persistence of The Palestinian Question. Essays on Zionism and The Palestinian.* Dar Al Ada, Beirut.

Najmi, Hassan. (2000). *Space Poetry (Imagined and Identity in the Arabic Novel*) *Arab Cultural Center*, 1st Edition, Casablanca, Morocco.

Obaidullah, Adel. (2000). *Dismantling the will of difference and the power of reason*, 2nd Edition, the house of harvest, Jordan.

Oron, Yair. (2015). *Holocaust, "Rebirth", Nakba*, Translation. Asaad Zabi, Review and Presentation. Antoine Shalhat, 1st Edition, Al-Ayyam Foundation, Ramallah

Ravindran, Q. (2002). *Structuralism and dismantling developments in literary criticism*, translated by Khaleda Hamed, House of Public Cultural Affairs, Baghdad.

Said, Edward. (1984). *Orientalism (Knowledge, Authority, and Construction).* Trans. Kamal Abu-Deeb, Arab Research Institute, Beirut.

Said, Edward. (1998). *Cultural and Imperialism*. Trans.: Kamal Abu-Deeb, 2nd Edition, Dar Al Ada, Beirut.

Smilansky, Yazhar. (1981). *Khirbet Khuza'a*, Trans.: tawfiq Fayyad, 1st Edition, Dar Al-Kalima, Beirut.

Yousef, Yousef. (2021). *Zionist Literature and Orientalism*, 1st Edition, Lines and Shadows for Publishing and Distribution, Jordan.

Zaytouni, Latif. (2002). *Dictionary of Novel Criticism Terms*, 1st Edition, Nahar Publishing House, Lebanon.